

خليل يasmine

كأس الموت

رواية

كأس الصفوت

رواية

ياسمينه خليل

العنوان : كأس الموت

المؤلف: ياسمينة خليل

تصميم الغلاف: ياسمينة خليل

تم نشر هذا العمل ورقيا تحت رقم

978_9931_719_07_6 عن دار ومضة للنشر

والتوزيع، سبتمبر 2019

الإهداء

إلى كل الأرواح التي تخلت عن الحياة

ولكنها لم تفارق كياننا أبدا

إلى جدتي سعدية

المقدمة

المعارك العظيمة لا تحتاج إلى مقدمات
تحتاج قلبا قويا وروحا هامسة تدفعك إلى الأمام
لتخوض المعركة كلك
ومن ثم اكتب الخاتمة التي تشاء

تنويه

لا علاقة للشخصيات ولا الأماكن بالحقيقة

وكل تفاصيل القرى الأمازيغية سرقتها من ذكريات

والداي

الفصل الأول

يا ليت كل أيماننا طفولة...

-1-

في ركن الزريبة، قابع يراقب ساعته المهترئة التي عوضت سلسلة الدوم مكان يديها، يراقبها باهتمام شديد ولهفة أكبر، حتى أن الجالس بينهما لن يستطيع التمييز بين دقات قلبه ودقات عقاربها، أمامه حصانه الذي كأنه أحس بقلقه فلم يحرك ساكنا، لم يكن يريد أن يزيد توتره.

فجأة، قام من مكانه كمن لدغته عقرب، كانت الدقة التي ينتظرها قد فرغت، اتجه إلى ربع المرأة الوحيد الذي يملكه ويخبئه في حفرة بذلك الجدار الرث راغبا أن يغيّر شيئا ما فيه، أراد أن يبدو أكثر وسامة، أكثر جذبا للأنظار.

حمل مشطا قد تآكلت أسنانه، وحاول تسريح شعره المجعد الطويل المتشابك كغابة في حوض الأمازون، لكنّها لم تكن إلا محاولة فاشلة فرمى بالمشط بعيدا وخرج مسرعا مشغول البال

يسابق خطاه، حتى وصل إلى المقبرة، وقتها أخذت خطواته
تتباطأ بشكل يوحى باللامبالاة.

بين تلك القبور المتناثرة والهادئة جدا حيث تقطن السكينة ويرقد
كل أنواع البشر بدون أي فرق طبقي ولا معرفي، تجلس هي
كأنها تنتظر أحدهم، تراقب الطريق الوارد إلى هناك، قامت من
مكانها وانتصبت واقفة عندما لاح لها شبجه مع قرب غروب
الشمس قادما بخطوات المجرر المسحوب من أنفه غضبا، اقترب
منها وهو يحدثها بلهجة فظة ونبرة حادة مع اتساع واضح في
بؤبؤ عينيه:

-ماذا تريدان؟ اختصري لا وقت لدي للمدلات أمثالك.

ابتسمت بخبث ضاقت له عيناها وهي تنظر إليه مباشرة، خبثُ
زاد جمالها ثم ردت عليه ببرود يزيد لهيبه:

-لا تتظاهر أنك لم تنتظر مواعي كثيرة، متوسلا إلى ساعتك

أن تسرع ثوانيتها.

رفع رأسه الذي كان يغرس نظراته أرضا ليخترقها بتلك
النظرات نفسها لكن خالطها الكثير من الاندهاش، أراد أن يسألها
كيف عرفت ذلك؟، هل تركت خلفه من يراقبه؟ أم لها عين
سحرية تطلعها على حركاته، لكنه سرعان ما فسّر الأمر على أنه
مجرد غرور الفتيات بجمالهن، يجعلهن يفكرن بتلك الطريقة، أن
الجميع ينتظرون إشارة من إصبعهن حتى يركضوا إليهن طالبين
نظرة استحسان، فعادت عيناه إلى محجرهما ورمت الدهشة
بعيدا، فقاطعت خواطره هي

-لست كذلك... أقصد أنني لست مغرورة ولا كبقية الفتيات.

تجاهلت رغبته في التعليق وبهدوء تام، اتجهت إلى أحد تلك القبور، قرفصت بقربه محدقة لشيء ما في الفضاء، كأنها تنتظر إشارة لتبدأ الكلام وتفرغ ما في جعبتها.

-تكلمي أخبرتك أن لا وقت لدي.

كان يقول ذلك وهو يحاول أن يحفظ تفاصيل وجهها مع الأشعة الأخيرة للشمس، منبها بكل حركاتها التي كادت أن تكون منعدمة لولا فركها ليديها، نظرها للأفق البعيد والعودة بناظرها إلى ذلك القبر الذي تجلس بقربه، كانت تبدو غارقة في التفكير، منهمكة في نفسها، لم تعر وجوده أي اهتمام وذاك ما جعل مزاجه يتعكر، حتى قررت كسر حاجز الصمت قائلة:

-لا أظنك جاهزا لتسمع أو تعي ما أريده يمكنك الانصراف بما أنك مستعجل، لكن سيكون لنا موعد آخر سأخبرك بمكانه ووقته لاحقا.

هذا كل ما جناه من لقاءه معها، اتسعت عيناه غيضا هذه المرة،
حتى أوشكتنا على مغادرة وجهه، لو كان شخصا آخر غيره لما
ترك الموضوع يمرّ بسهولة وردّ عليها بما يليق بتصرفها الذي
أبرز استعلاءها وغطرستها، لكنه جبل من الجليد لا يهزه شيء،
أغمض جفنيه بطريقة أعادت الهدوء إلى روحه ثم أدار ظهره لها
بكل برود قاذفا لها كلماته:

-تعبت وأنا أكرر نفس الجملة، لا وقت لدي لتافهة مثلك، لا

تبحثني عني مجددا.

-كيف لشباب بقلبك القاسي هذا وجسمك القوي المفتول أن يكون

عبدا لغيره، محير فعلا.

في خمسينات القرن الماضي، هناك في بوفنزار احدى القرى
القبائلية بجعافرة المترامية على الجبال الخلابة من برج
بوعريريج، ذات الطبيعة العذراء الصعبة كالعروس في خذرها،
لا تكرم إلا من يحبها ويخدمها، بها تمازج ألوان لا يمكن إلا أن
تريح قلب الناظر إليها، تجمع بين الخضرة والزرقة في لوحة
أبداع خالقها ومن ثم تعب الفلاحون في رسم تفاصيلها كأنها أحلى
صبية نحتوا لها جسما فاتنا سارقا لللب، يكون التوزيع العمراني
للقرى جميعها متشابهة تقريبا، تجد طريقا رئيسيا واسعا بادئ
الامر يقسمها قسمين، قد ترامت البيوت على أطرافه تأكل من
عرضه، يتخلل هذه الأخيرة ممرات ضيقة هي حقيقة لا تأخذ لأي
مكان فقط تفصل بيتين متجاورين عن بعضهما بمسافة معلومة
لتنتهي بجدار بيت ثالث أو قد تجد لك منفذا من خلالها إلى أحد
الحقول، قد تصادفك بين تلك الديار أيضا إحدى معصرات

الزيتون، ومن قد يذكر بلاد القبائل دون أن يخطر بباله زيت
الزيتون سليل تلك الشجرة المباركة، لكل قرية أو خروبة مقهاها
الخاص، كما يختار الأهالي أعلى منطقة في القرية لإقامة
المسجد.

أما أعرق منطقة في الخروبة وأحبها للرجال هي تجماعت بلا
منازع، المكان المخصص لتجمعاتهم، قد تجدها في المدخل أو
وسط المنازل، ففعليا مقرها لا يهم بقدر ما تهتم مكانتها وقيمتها
عند السكان فهي ملك لكل فرد، الكل يسال فيها بالعامية يعني،
يمكنه فعل ما يشاء ما دام في تاجماعتيس... هندسيا هي عبارة
عن صفائح كلسية تشكل مع جدران المنازل ما يشبه الكراسي، لا
يوجد توزيع محدد لهذه الأخيرة، يمكنك ان تختار المكان الذي
يرحك ولن يزامك فيه أحد.

البيوت هناك من الطوب تحكي جدرانها قصص من مروا عليها،
وهو حال كل الدور، شواهد على عفوية أهلها وبعدهم عن
التصنع، فهم يشبهون جدرانهم، بدون طلاء خارجي ستلمح
بوضوح التوزع الحجري لها، أما سقف البيت يكون من القرميد.
ما إن تدخل من الباب الرئيسي الذي هو عبارة عن دفتين كبيرتين
من الخشب تفتح واحدة فقط عادة لكن الحمار المحمل يفتحان له
ترحيبا بحمولته، ستجد الفناء ذو الأرضية الترابية التي تتحول
الى وحل في الشتاء، ثم يقابلك البيت، مجرد غرفتين لا غير، أو
بنظرة أدق هو غرفة كبيرة يقسمها نصف جدار، جزء مع الباب
وجزء بابه فقط ما بقي من نصف الجدار ذاك، وهذا الأخير هو
أدائني الجزء المخصص لما يملكه صاحب البيت من ماعز،
حصانه و حماره ، أما الجزء الموصول مع الفناء، فهو للعائلة،
وأنت تقف عند الباب تجد على يمينك رفا كبيرا من الجدار
المقابل إلى الجدار الثاني وهذا ما يسمى لكُدر، يستعمل لحمل كل

الحاجيات من أفرشة وأواني، على طرفيه الإثنين إناء كبير في كل جهة، أكُوفي بغرض تخزين القمح والشعير، يتوسط لكدر، الكانون أو الموقد للطبخ ومصدر الدفء في الشتاء، تلتف العائلة حوله لتحكي قصصا لا نهاية لها، يقف أبرع كاتب سيناريو فاشلا في إطالة قصته كما تفعل الجدات وقتها، تطلّى جدران المنزل من الداخل بالطين قد ترسم عليها المرأة إن أرادت تزيين بيتها أكثر، أما فراشهم فهو أبسط ما يكون، أو لا يوضع الحصير من الحلفاء ثم يفترش فوقه أغطية تجعل الجلوس مريحا أكثر.

غير بعيد عن القرية تجد الحقول التي تأخذ جهد الفلاحين لتبدو كجنان صغيرة تعيل الأهالي وتضفي لمسة جمالية على المكان، هناك ليس لك إلا الطبيعة العذراء لتعيش منها وبها، على سيرة الحقول، فهناك بساتين صغيرة تلتصق إحداها بالدار أو تكون على مقربة من الوادي لقرب الماء فسقيها صعب سابقا لنقص المعدات.

هذه القرى الصغيرة يكون رأس مال أهلها الأخلاق والسمعة الطيبة، يخافون من أي فضيحة صغيرة كانت أم كبيرة فالكلام فيها ينتشر بطريقة أسرع من كل أجهزة التواصل الحالية، يكاد يجزم البعض أنهم أقوى شبكة مخابرات عالمية، خاصة النساء إذا اجتمعن عند العين لمأ الجرار، سيكون لكل دور في الكلام وسرد ما يجول بخاطره من أخبار، تتأكدن من بعضها وتقلن بعضها الآخر بطريقة السبق الصحفي...

بهذا الوصف البسيط نحن لا نوف هذه القرى حقها من الجمالية، فهي تبدو للزائر أنها مقر الحياة الصافية النقية، لكنها تكونت بتعب سكانها، قامت على فقرهم وشقائهم، أنت لن تشرب الماء إذا لم تملأ جرتك مسبقا من ثالا (العين)، لا يزور الدفء جسمك شتاء لو أنك لم توفر الحطب اللازم للكانون، لا تقدم لك الطبيعة شيئا دون أن تأخذ منك المقابل...

ها هو أذان الفجر يمزق صمت ليلة من ليالي الربيع، هناك في
فناء البيت الثالث على يمين الطريق، كان السيد يوبا ينتظر، بعد
ان قضى الساعات السابقة يسمع صراخ زوجته يخترق روحه،
يذرع الفناء ذهابا وإيابا والقلق يلعب بقلبه، القلق الذي يجعل الثانية
تبدو ساعة، فكيف بساعات طويلة، ذاك الصراخ انقطع فجأة،
لينوب عنه الهدوء والصمت اللذان كانا أقوى من الصرخ و قعا
على نفسه، بدأ الدم يغلي في عروقه، يريد أن يدخل إلى بيته
ويعرف ما حدث لكن كيف والبيت يعج بالنساء، كانت نار
الفضول تمتزج بالجزع والتوتر تلتهم حكمته المعهودة، يودّ أن
يتبين لماذا كتم الكون صوتها، ولحسنه حظه لم يطل انتظاره فبعد
برهة سمع صياحا لكن من نوع آخر، بطعم بعيد جدا عن سابقه،
جعل البسمة تزور محياه بعد ليلته العصبية بين سياط العجز
والقلق، لتخرج عجوز وهي تزغرد وتردد

-مبارك عليك زي يوبا، طفلة كالبدر ليلة تمامه.

أسرع يوبا إليها يسألها عن تينهنان، وهل هي بخير، ولما اختفى صداها؟ فطمأنته عليها أيضا، أخبرته أنها كانت ليلة عظيمة فالولادة صعبة نظرا لسنها وقد أنهكتها وهي الآن تحتاج إلى الراحة ومراعاة خاصة لكنها عموما بخير.

تخطى الداية باية ودخل، خرجت كل النساء لينفرد بتينهنان التي كان الكرى قد تسلل إليها وعلامات التعب قد علقت بوجهها، شعرها الكستنائي المبعثر عليه وعرق الحمى والانهاك قد بللتها، تقدم بحذر وحمل طفله التي أخذت مكانها أمام قلب والدتها، كان صعبا تبين ملامحها لكن الجمال لا يحتاج تمهيدا، لم تفتح عيناها ليتبين لونهما لكنه تمنى أن تكونا كعيون حبيبته، بشرتها وردية ناعمة تخفي بياضها الذي سيشرق بعد زوال آثار الولادة، تظهر على رأسها بعض الشعيرات النحاسية، كانت تبدو كملاك أهداه

الله لتلك العائلة، أشرقت به شمس يوم جديد وعمر سعيد، قرب
شفاهه من أذنها اليمنى وأذن لها بصوت يرتجف من السعادة.

فرحة تينهان عارمة، كيف لا وهذه الصغيرة هي من استطاعت
ان تخلصها من لقب العاقر الذي التصق به، كانت كل ما ينقصها
حتى تكون تلك السعيدة، أما فرحة يوبا فحرفيا لا يمكن وصفها،
فقد انتظر هذا الحدث لوقت طويل، وبين زحام الأسماء اختارا لها
"تافسوت" الذي كان يليق بها جدا ففعلا كانت كالربيع الذي حلّ
على الأسرة بعد أشتية كثيرة لا ربيع لها.

صنع يوبا مهد تافسوت بكل حب، أحضر غصن الدفلى لأنه لين،
ثم جعله على شكل حلقة كبيرة، تشابكت عليها الخيوط لتملاً
فراغها على شكل شبكة عنكبوت، ثم صنع لها يدان من أغصان
الدفلى كذلك ليعلقه أخيراً وسط المنزل، أرجوحة تصبح مهذا إذا
نامت تافسوت.

في اليوم الثالث استفاقت العائلة وكلها نشاط، حضرت أم تهينان الكسرة و القهوة التي ملأت رائحتها المكان معلنة بداية اليوم، أما يوبا فبعد ان كحل عينيه برؤية ملاكه وتأكد أن زوجته قد تحسن وضعها، خرج إلى الفناء وذبح بعض الدجاجات لإقامة عشاء بهذه المناسبة الغالية على قلبه كما جرت العادة، تكفلت فاطمة حماته وأمه رقية بطبخ قدر كبير من سكسو ذو بصار، وهو نوع من أنواع الكسكس الذي يحضر خصيصا لهذه السانحة، يكون مرقه بدون خضار سوى من اللفت الذي عادة لا يؤكل فقط لذوقه في المرق، يطبخ من ناحية أخرى الفول المجفف لتصنع البصارة التي تضاف إلى المرق، رائحة ذاك المزيج مضافا اليها التوابل من الكزبرة والثوم المدقوق والكون، قد يبدو وصفها غريبا لكن الذوق سأترك لك أمر الحكم عليه... ثم يوزع على الجيران صحن من الكسكس عليه نصيبه من الدجاج وترافقه كمية مرق تكفيه.

بقيت خالتي فاطمة ورقية يزرنهم يوميا لتعتنيا بتينهنان
وحفيدتهما، لا تخلفان طقسا من الطقوس إلا وطبقته عليهما، في
الليلة الأولى خلطنا قليلا من دقيق القمح مع الملح وزيت الزيتون
ليدهن به جسم العروسة الجديدة ربما لتقشيره من آثار الولادة، أما
في الليلة التي تليها فيطلى جسدها بزيت الزيتون وحده، يخلط هذا
الأخير بالحنة في الليلة الثالثة، هذا هو سر جمال بشرة بنات
القبائل، تكحل عيون الطفلة فالكلح الطبيعي يعالج عيونها من كل
شائبة، تحنى يدا وقدماء كل من تافسوت وتينهنان يوم الجمعة،
الحنة التي كلما كانت سوداء أكثر كلما دل على أنها من النوعية
الجيدة في نظرهم.

أكاد أجزم أن هذا الاهتمام والقدر الجميل من الراحة هو السبب
الذي يجعل النساء تلدن كثيرا، خاصة إذا كانت المهتمة بها هي
الأم، رغم أنه لا يكون متاحا لكلهن، حتى أكل النفساء يكون
مميزا عن باقي الأيام، يبدأ صباحها بتحبُّولت وهي كعكة بسيطة

يخلط فيها البيض الذي يجمع من الدجاجات صباحا وقليل من دقيق القمح الرقيق جدا الذي يرحى بتسيرت، أو الطاحونة المكونة من صخرتين، تثبت على الصخرة العليا عصا خشبية في مقام يدها، كما يكون بها ثقب في وسطها يوضع من خلاله القمح، تديرها المرأة على الصخرة السفلى فتسحق الحبات بينهما... تولى تحبوت أخيرا في زيت الزيتون، الزيت الوحيد المتاح لديهم، ثم تتناولها النفساء بعد غمصها في عسل النحل الأصلي، مع كل لقمة تشعر بالطبيعة تتغلغل فيك، كما أنهما تكثران من الأكلات المذرة للحليب، كأبازين (بركوكس أو المردود)، يفتل كالكسكس لكنه أكبر حجما منه، أو تيكربابين وكل الأكلات التي بها مرق.

بمجرد أن أقبل يوم الواحد والأربعين، رافق آذان الفجر قيام تينهنان، أرضعت طفلتها وأعادتها إلى مهدها وتأكدت أن الكرى عاد يرخي رداءه عليها، هزته قليلا حتى يبقى يتأرجح هكذا في الهواء مانحا لها وقتا كافيا لتنتهي عملها قبل أن تستفيق مرة

أخرى، أول ما بدأت به هو تحضير خبز البيت، أنزلت قصعتها من على لكر ووضعت بها القمح وقليلًا من الملح وشيئا من زيت الزيتون ثم عجنتها وجهزت الكانون لكي تطهيتها عليه، ثم وضعت ركوة القهوة ليعبق ريحها في البيت كله، تجمع فراشها وتبدأ في تحضير غذائها، تحلب معزاتها، ومن ثم تجلس لتملأ الوقت الباقي بالنسيج، وحتى تبقى طفلتها هادئة كانت تربط مهدها بخيط يصل إليها تهزه كلما أوشكت الأميرة وسطه على البكاء، ينتظران عودة يوبا من الحقل.

لم تكن النساء تشعرن بالفراغ، ربما لم يكن لهذه الكلمة معنى لديهن، يطبخن، يرببن، يملأن جرار الماء، ينسجن ويحضرن دقيقهن وإن كان موسم قطف الزيتون فكن أول المتواجبات بالحقول لذلك...

-4-

جاء يوم الاثنين، أو كما يحلوا للبعض تسميته يوم المتعة والراحة، اللتان عمليا لا تتوفران به بسبب بُعد إلماين عن بوفنزار قرابة الساعتين مشيا على الأقدام فتسقط بذلك فكرة الراحة، أما المتعة فلا سبيل لهم لها لرتابة أحداثه، إنه يوم السوق حيث يلتقي رجال القرى المختلفة في القرية التي تحتوي سوقا لبيتاعوا ما يحتاجونه، فتقريبا لم تكن تلك الضيع الصغيرة تحتوي دكاكينا بها حاجياتهم كلها، بضاعة المتجر منهم لا تتعدى السكر والقهوة وأشياء أخرى بسيطة، فتجمع حاجياتهم لإثنينهم.

يكون الدفع حسب الاتفاق فإما عن طريق المقايضة فيبيع هذا لفتنا أو قمحا أو قماشاً مقابل زيت الزيتون من المشتري، أو يدفع ميسورو الحال مباشرة ثمن ما بيتاعونه، كان هذا السوق مهرجانا كبيرا لكل ما قد يحتاجه القبائلي.

هناك بين الجموع، عجوز بالكاد تستطيع التحرك تجلس على الأرض وأمامها تلك الصرة، لفة حريرية لكن قاسية، أفت بعناية وحب والكثير من الدموع، لكن لم يقترب أحد منها، بدأ الطفل الذي بين طياتها بالبكاء وأخذ صوته يعلو وهي لا تملك له نفعا ولا ضرا، ثم بدأت تتكلم بصوت يشبه النحيب

-هل من محسن يكفل هذا الطفل، ماتت أمه ولا املك جهدا ولا مالا لتربيته...

ظلت تكرر كلماتها، حتى سرى الخبر في كل السوق وتجمهر حولها ناس كثر أغلبهم متطفلون سحبهم الفضول فقط، ها قد أصبح سوق الإثنين يقدم أطفالا جاهزين أيضا.

ليس كل الأطفال كنافسوت يجدون الحب والراحة بعد ركلهم بطون أمهاتهم، البعض تكون الظلمات الثلاث لذلك البطن أسطع نورا من هذا العالم، تجعله يتمنى يوما لو أن ذلك الحبل السري

كان حبل مشنقة رحمه من القادم، كان على الأقل سيضمن الجنة
عند ربه.

ايثري الاسم المناسب لطفل مناسب في وقت غير مناسب، هو
النجم الذي أطلّ على حياة تيزيري قبل سنتين، لم يتركها قمرا
وحيدا، لكن المرض هاجم جسدها رافضا سعادتها، كأنه لم يحتمل
أن يراها ضاحكة العينين، أو أنه حظ ايثري السيئ، عجزت
مداوية الأعشاب عن إيجاد حل لحالتها ولا حتى مسكنا لآلامها،
لم تعد المسكينة إثر الأوجاع التي تحاصرها تقوى
على الوقوف ولا الحركة ولا حتى سماع صراخ ابنها الذي يبكي
الجوع،
يبكي العطش ويبكي قلة النوم والتعب، فما كان بوسعها إلا سكب
تلك العبرات الحارة على حظ نجم حياتها العاثر.

أما زوجها وسندها يوغرطة فلم يعرف الصبر له طريقا، لم
يتحمل صوت ابنه ولم يحاول حتى العطف عليه، لم يرأف بعيون

تيزيري وبكاءها المتواصل فقرر دون مشاورة أحد غير أنانيته
هجرهما، حمل ما يمكن حمله من البيت تاركا ألما كبيرا يغزو
روح زوجته، ألما عميقا عمق المحيطات، إنه وجع الخيانة أبشع
من أن يكون مع غيرها بل لأنه تخلى عنها في أمس حاجتها إليه،
وهي التي اختارته ليشاركها ضراءها قبل سراءها، فغمرها بألم
عجزت بكل قوتها أن تتحمله، طعنات المقربين منا تكون أكثر
ألما وعمقا لأنها تأتي من مسافة قصيرة.

هناك في السوق، أصوات التجار تعلو، كثر الجدل ولم يصدق
البعض أن أمه فعلا ماتت فلا أحد يعرف العجوز أو الأم التي
تتحدث عنها، هذا يلومها وهو يلقي نظرات الإنكار على العجوز
فيفترض أن الأجر بها أن تعتني بطفلها مهما كانت ظروفها، هذا
هو واجبها والهدف الذي خلقت لأجله، وآخر يلعنها وهو يرى في
ايثري أنه ثمرة عار هذه السيدة، وما أكثر من كانت تلك هي
نظرتهم، ووسط تلك الجلبة تكلم العاقل الرزين المشفق الذي

صدَّق العجوز باحثًا عن كافل لهذا الطفل، ثم علا صوت فوق
الجميع، أسكتهم جميعا كصوت الرعد وسط البروق، كصوت
الحقيقة وسط الشكوك وهو يحملق مرة بالعجوز ومرة بتلك اللفة.
أ- فعلا ماتت؟ لقد تعذبت وعذبت، والآن ارتاحت وارتاحت...

كان ذاك صوت يوغرطة الذي قصد السوق للتبضع لرحلته
الطويلة فلا هدف محدد لها، ولا وجهة يقصدها، بمجرد انتباه
الرجال له، أدار ظهره مغادرا دون أي توضيح مخلفا بعده تساؤلا
وحيدا:

كيف يعرف أم الطفل؟ ...

اقترب أحد الحاضرين نحو اللفة، تفحص من بداخلها كأنه خروف
سيشتريه للعيد، راقب بدقة إن كان له أسنان لبنية وما عددها،
أزال اللفة عنه وهو يحاصره بنظراته الفاحصة: له يدان كاملتان،
أصابعه نحيلة طويلة بالنسبة لعمره، حتى قدماه بخير، لا يظهر

على جلده أية ندوب أو أي شيء يعكس نعومة بشرته، تأكد أخيرا من سلامته والكل يترقب نهاية ذلك، ودون أن يستأذن أحدا، حمله وقال:

-أنا أخذه...

وافق الجميع بارتياح واضح على المحيا كأنه مرض عضال قلق الكل أن يكون من نصيبه، الوحيد الذي كان له صوت وقتها هي العجوز

- اسمه ايثري، امه تيزيري، وأما والده فيوغرطة، أخبره أن أمه كانت تحبه كثيرا لكن وحيدة سرقها منه القدر والمرض.

لم يترك لها غيلاس مجالا لتكمل سردها، كان واضحا أنه غير مهتم من أين سقط هذا الفتى، غيلاس هذا هو أحد كبار تجار القماش في المنطقة كلّها، من سكان إلماين فلا يخلوا سوق الاثنين من وجوده، ذو بطن بارز وقد قصير، وجه عريض قد طمست ملامحه من فرط السمنة وكأنه خدود فقط مع بعض الوجه، له

صوت غليظ يميزه الجميع فهو لا يكف عن الصراخ على عماله
المساكين، لم يُعرف له ولد رغم زواجه من نساء كثيرات
وعلاقات لا حصر لها في الخفاء، ربما هذا هو سبب كفالاته
لايثري، قد يكون حرّك قلبه الذي لا وصف يجوز له إلا القاسي.
لم يكمل يومه في السوق بل جمع بضاعته وعاد أدراجه إلى بيته،
حمل ايثري ككيس بطاطا وأخذه معه، فور دخوله رماه في حضان
زوجته الأخيرة تانيلا التي تحسدها جميع النساء على جمالها
وقدّها المنحوت، لها وجه أبيض كأن الدم لا يمر به، بعيون
خضراء وشعر أشقر طويل يغطي ظهرها، وقد عرفت بالحيلة
والذكاء اللذان تلاحظهما حتى في حركة عينيها، وهما ما أيضا ما
ساندها أن تحكم قبضتها في بيت غيلاس وتبقى زوجته وتتمتع
بكل ثروته.

بمجرد أن رأته اثري بين يديها، لم تكف عن طرح الأسئلة، من هو؟ ومن أين أتى به؟ أما الأهم فلماذا هو في بيتهم؟ ... أسكتها غيلاس بنظرته الحادة وكلمات تخيف لمجرد أنها بنبرة صوته -أتاك ابن بدون تعب حمل ولا آلام ولادة ونفاس، من اليوم هذا هو ابننا وبدون نقاش.

ثم تنازل قليلا وجلس ليحكي لها بالمختصر الشديد ما حدث في السوق، "عجوز رمته فأخذته"، ولأن المرأة لا تستطيع إلا أن تشك، زد عليه ماضي غيلاس مع النساء الذي يعرفه الجميع، راح عقل تانيلا يجول في أروقة التفكير ذهابا وإيابا، صعودا نزولا وهي تتأمل اثري علها تجد شيئا ولو بسيطا يجمعه بزوجها، حدسها يخبرها أنه ابنه من علاقة أخرى وكل ما جرى كان بتدبير منه حتى يبدو رجلا فاضلا ويستطيع تربيته بين أحضانها، لكنها لم تنطق ببنت شفة ولم تصارحه بشكوكها التي

كادت أن تكون يقينا داخل رأسها، فهي تعرف طباعه السيئة
وجربت قبلا يده الخشنة.

كبرت تافسوت وهي تزداد تميّزا وجمالا، عيناها الكبيرتان
البنيتان اللتان تصبحان بلون العسل الصافي اذا انعكست عليهما
الشمس، وفمها ذو الشفتين بلون التوت، بشرتها البيضاء المزينة
بالنمش كرمل الجنة، ولا يكتمل الجمال بدون شعرها الكستنائي
الطويل اللماع بفعل الزيت، نظرتها البريئة تخفي شيئا دفيئا
تجعلك تتمنى أن لا تفارقك هذه الطفلة أبدا، تلبس قندورتها
القبائلية التي تمتزج بها كل ألوان الحياة، جمالها كان في طباعها
أيضا فرغم انها طفلة إلا أنك ستلمح النضج في حركاتها، هادئة
رزينة دائمة الابتسام، ما إن بلغت السادسة حتى توقفت عن اللعب
خارج البيت كما هي عادة العائلات هناك في حجب بناتهن
وتعليمهن أساسيات المنزل حتى يكن مثلا لاحقا للمرأة الصالحة
في نظر سكان الدشرة.

أصبحت أيامها مرتبة على هواها، يكاد لا يفرق يوم عن سابقه أو لاحقه إلا في تفاصيل صغيرة، بين صباح تقضيه رفقة أمها محاولة أن تساعدنا بما تستطيع، تحمل صحننا من هنا، تجمع الأفرشة، أو تكنس الأرض إذا سمحت لها تينهان بمكنسة الدوم، لا تسعها الدنيا فرحا إذا نظرت لها أمها نظرة الرضا أو أثنيت على حركاتها البسيطة، ترافقها لملاً الجرار دائما وهي تستمتع بأغاني النساء وأخبار الدشرة.

أما مساء بعد الظهر، فنتوجه إلى الجامع، أين يجتمع الأطفال لتعلم القراءة والكتابة وليحفظوا القرآن، رغم أن ذلك في القرى القبائلية هو حكر على الأولاد الذكور لكنها ميزة أن يكون والدك مثقفا واعيا، فقد استطاع إقناع الشيخ أن يدرسها معهم إلى مرحلة معينة فقط، تحضر لوحها المطلي بالصلصال ومدادها أو الصمغ الذي تصنعه بعد حرق الصوف، كما كان يوبا يتفنن في نحت قلمها من القصب.

في كل مرة تحفظ فيه لوحا تغسله بالماء ثم تطليه بالصلصال لتكتبه من جديد، وحالما تحفظ حزبا أو جزء كانت تحضر كسرة كبيرة تشبه جائزة للشيخ، تنجو دائما من الفلقة بحكم أنها فتاة، لكنها كانت في الوقت نفسه مجدة جدا لا تحتاج إلى التعنيف.

تخرج من الجامع لتجد يوبا بانتظارها، يترافقان إلى ركن على تلة لا تبعد كثيرا عن القرية، في حقله يتكئان إلى شجرة رمان كبيرة، وتبدأ تافسوت بقراءة أحد كتب والدها الذي يكون قد اختاره لها بعناية من مكتبته المتواضعة، التي تحوي كتبا كثيرة وروايات جمعها خلال سفراته العديدة إلى العاصمة أيام شبابه، تفتح الكتاب بنأن كأنها تعامل حبة بيض تخاف عليها الكسر، فهي تعرف حب أبيها لكتبه، ثم تقلب الصفحات وهي تهجي نصوصه، تفهم ما تفهمه ويشرح هو ما بقي.

هو لا يمل من تلك الجلسة اليومية، وهو ينظر إلى طفلة بفخر كبير وابتسامة أكبر مع فرط واضح من الحب لا يفارقه في كل حركاته وهمساته، مت دخلا مرات في تصحيح كلمات تقولها خطأ بعد أن يضحك كثيرا.

يوبأ رجل سمح الوجه، تعلق رأسه بعض الشعيرات البيضاء التي زادت من وقاره بعينين قد حاصرتهما التجاعيد الشاهدة على سنين التعب، فكل خط هناك يحكي قصة، كان طوله واضحا ملاحظا ومع الكبر انحنى أعلى ظهره تعباً من مناطق الحياة، بمجرد أن تلمحه ستشعر بالهيبة، بسيط معروف بعفويته وثقافته الواسعة التي جمعها من سفراته المتكررة وكتبه الكثيرة، لم يكن يمثل العجوز القروي، ربما لأنه لم يرد أن يكون كذلك، أراد ان يكون أحد أولئك الشخصيات التي يقرأ عنها، فحتى ثيابه كان يهتم ان تكون مرتبة من سروال اللوبيا، الذي يكون عريضا مرتخي ما بين ساقيه، لا أعلم صدقا لما يسمى هكذا ربما لأنه بذلك الانحناء

يشبه حبة الفاصولياء، برنسه دائما موضوع بطريقة مرتبة على كتفيه، ورغم أنه لا صاحب مال وفير ولا منصب رفيع، إلا أن شهرته بين الأهالي كبيرة وحب الناس له صادق بدون مجاملات، يجمع الأهالي إلى جلساته الأسبوعية في تجمعات للحديث عن الحب، التفاؤل، الدين ونشر العلم ما استطاع، يساعد الجميع دون استثناء، فأحبه الجميع باستثناء أكلي شيخ الدشرة والذي كان ابن عمه في الوقت نفسه، كان يرمقه دائما بنظرة دونية لم يعرف أحد سببا لها.

خارج إطار العائلة الصغيرة كانت تافسوت متعلقة جدا بإيدير جدها من أبيها دون غيره من الأسرة، تزوره دائما مساء بعد زيارة الحقل، كان دلالة لها مميزا، فهي حفيدته الوحيدة، وليس هناك أعز من الولد إلا ابن الولد، يجلسها في حجره ويحكي لها تيموشوها (القصص)، يخبئ لها الثمار المميزة، كانت تسليته في كبره ووحدته بعد وفاة رقية عقب ولادة هذه الصغيرة بسنتين،

بالمقابل كان صديقها الذي يشعرها أن طلباتها أوامر، ولأن لا أحد يعيش معه فكانت تحضر له الطعام الذي تحضره أمها، تكنس له البيت، تجهز له فراشه للنوم، تجمع ثيابه المتسخة لتغسلها تينهنان، كان طفلها هو أيضا بطريقة ما...

الجد والجددة هما الدلال لو تجسد في بشر، ذاك الدلال الذي لن يمنحه لك أحد غيرهما، محظوظة هي أنه كان موجودا، محظوظ هو أنها كانت متعلقة به ولم تكن كباقي بنات الدشرة يقدرن الجد ويخفن حتى الوقوف أمامه.

في هذه القرى تكون الأحداث التي يهتم لها السكان قليلة جدا، يعيشون في روتين غير متجدد، قد يجدون لأنفسهم متنفسا بالغناء مثلا، فهم قد غنوا لكل شيء حتى الجناز لهم لها مدائح خاصة، قطف الزيتون أيضا له أغانيه، إنك فقط لو جمعتها وفهمتها لعرفت تفاصيل حياتهم بكل بساطة، ومن طرق كسر الملل لديهم

أيضا تيموشوها، شكركر مثلا واما جوهر العيش لديهم فهو العمل
ثم العمل...

لكن يوبا وجد حدثا يشغله، تينهنان حامل مرة أخرى، وصراخها
يكاد يصم الأذان، هذه المرة لم يكن وحيدا في فناء بيته ولكنه كان
يحتضن ابنته ذات العشر سنوات محاولا تفرغ الفائض من
التوتر، تافسوت التي كان الخوف يطل من عينيها، فلو كان الأمر
بسيطا كما كانت تخبرها أمها لما رأت هذا الجزع يتلبس وجه
أبيها، أبيها الذي لم يعد يجد بما يجيبها على أسئلتها الكثيرة...

-ألم تخبروني أنه لا يزال هناك ثلاثة أشهر ليأتي أخي؟ لما
تصرخ أمي هكذا؟ هل عجزت نانا فطيمة على إخراجة؟ أبي لما
لا تجيبني؟ دادا هل يمكن أن أدخل وأرى ماذا يحدث؟ ...

وهو في قمة ضياعه خرجت نانا فطيمة وتعابير وجهها لا تبشر
بالخير، اكتفت بخفض رأسها وفرك يديها، ثم عدلت من غطاء

رأسها وتقدمت نحو يوبا الذي لم تستطع قدماه على حمله حين
رأى وجهها

-سيعوضك الله-

أفلت تافسوت وجلس أرضا، غرس يديه بترابها، خرت قواه
تماما، هاجمته ذكرياته مع حبيبته كقطار مسرع حطَّم اعصابه،
كيف يمكنه أن يعيش بعدها؟ تبا للأولاد وتبا لهذا العالم الذي
حرمه إياها، نظر الى ابنته التي لم تفهم بعد حجم مصيبتها، تاه
عن هذه الدنيا إلى دنيا أخرى لا تحمل إلا الحزن، ولا لون فيها
إلا الأسود...

-الحمد لله ابنتي تينهان بخير، لكن أنت تعلم أن عمرها لا
يسمح لها أن تحمل وتنجب، كانت معجزة أصلا أنه بقي إلى هذا
الوقت في بطنها، بارك الله لكما في هذه العروسة، لقد كان ولدا
وأصبح الآن طيرا من طيور الجنة.

كانت كلماتها كترياق الحياة إليه، تماما كجهاز الصدمات

الكهربائية داخل غرفة العمليات، يا الله لم تغادره هي لا زالت

تتنفس معه نفس الهواء، ستشاركه ما بقي من أيام حياته، لا يريد

أولادا فقط يريد أن يبدأ يومه بها، أن تشاركه بابتسامتها لحظاته،

ان تكون لقمته من يدها، ان تكون دفأه وسنده امام قسوة الحياة،

فكر أنها ستنفذ وعدّها بتزويج ابنتهما كي يعودا حبيبين من جديد.

لا أكسجين يعادل ذلك الذي نتنفسه رفقة الأحبة، حتى القصور لا

تعادل الأكواخ التي تغلق بابها على الحب، قد نراها مبالغة لكنها

فلسفة السعادة العجيبة، البعض يراها مالا وفيرا وقصرا عالية

الأسوار وينسى الأُنس فلا يسعد، وآخر يراها حبيبا ولقمة حلالا،

ربما هي قوة القناعة او أي شيء آخر لكن الماديات وحدها لا

تدفع قلبا ولا تسره.

-ألن يكون لي أخ؟

-لا يا حبيبتي، لقد اختار الله أخاك ليكون إلى جواره.

-كيف؟ هل سافر قبل أن يرانا؟ قبل أن أعرف ملامحه؟ ماذا لو

التقيته في الطريق، كيف سأعرفه؟

-انت كبيرة الآن ولا بد أن تفهميني (قالها بصوت خافت كأنه

يكلم نفسه) أخوك مات، أي أنه غادر هذه الحياة كلها، سنلتقيه

فقط عندما نموت مثله، الموت قدرنا جميعا يا حلوتي، كأس لا

بد أن يشرب منه الجميع، هو لا يترك بيتا إلا زاره وأخذ منه

عزيزا، وأنت الآن عليك ألا تبكي ولا تحزني فهو يراك من

السماء وسيبكي أيضا إن رأى دموعك.

-لما لم يأخذ الموت أخوات سليمة جارتنا؟ لها خمسة ولن يهملها

إن نقص واحد، لماذا أعجبه أخي الوحيد؟

- نحن لا نسأل الله من يختار إلى جواره، الله يحب أخاك أكثر.

كان يعلم أن أسئلتها لن تنته، لذلك تركها ليطمئن على تينهنان التي تنافس على إنهاكها التعب، المرض، السن والحزن، ولعل الحزن كان أقوى المنافسين وأشرسهم، جالت بخاطرها نفس تساؤلات ابنتها، لما ابنها لم يكن قويا ليصمد حتى التاسع أو حتى شهرا إضافيا واحدا فقط؟ لماذا هو من بين الجميع تخطف روحه سريعا هكذا؟ الحزن يفقد أرجح العقول منطقها، وأكثر القلوب ايمانا ثققتها بما تؤمن به، لكن يوبا كان أقوى بقليل وقد تجاوز هذه المرحلة وهو يجيب تافسوت، جلس أمامها بوجهه السطح الذي لا يمكن إلا أن يبعث الطمأنينة في روحك.

-سأحكي لك قصة تشبه حالنا يا عزيزتي، أعلم أنك تعرفينها لكن الذكرى تنفع المؤمنين وقلبك مؤمن وأنا أعلم به منك، هل تذكرين قصة سيدنا موسى رضي الله عنه مع سيدنا الخضر عندما قتل الغلام؟ استنكر سيدنا موسى ذلك، فما كان جواب سيدنا إلا أن أخبره أنه لا يعلم الغيب، ان ذلك الغلام سيكون عاقا

بوالديه مستقبلا، وهما صالحان، ربما الله يحبنا يا تينهنان عليك
ان تفرحي لهذا، ربما كان سيكون معاقا أو شريرا او عاقا يؤذينا
مع كبرنا، ارضي بقضائك وامسحي دموعك لنا الله نحمده
ونستعين به على ما لا طاقة لنا به.

العود إلى حياتنا بعد المصائب يأخذ وقتا لكننا نتعود، يعود إلينا
رشدنا وإيماننا أنها أقدار الله تعالى، وأتينا مهما بلغنا من العلم لن
نصل علمه بما تخبئ لنا الأيام.

أجمل ما في الطفولة أننا لا ندرك ما نحن نمر به، كل شيء قابل أن يكون مجرد لعبة ليس إلا، ننتظر النوم لنغوص في الأحلام منتظرين يوما جديدا يحمل مرحا أكثر، بلا هموم بلا تفكير يتعب الروح ويجعلها تشيخ، وهذا بالذات ما يحسد الكبار الصغار عليه.

هكذا مرت السنين الأولى في حياة ايثري لم تكن جنة لكنه لم يكن يعي كل ما فيها، أول الأمر كانت تطعمه تانيلا وتغير له ملابسه بدون أي تفاعل معه ثم ترميه في ركن الغرفة كأى كرسي أو لحاف وإن حدث وبكى كانت تقف أمامه تحركه برجلها وكان يسكت كأنه تعود الطريقة، ظل نحيفا لأنها لم تكن تجد له وقتا وسط اهتماماتها لتطعمه، هي أصلا لم تكن تحضر له طعاما يلائم سنه الصغير، أما غيلاس فلم يحمله يوما بعد أن أحضره لبيته، ولم يكلف عينيه عناء النظر إليه.

عندما بدأ إيثري يحبو أصبح يقترب منهما كفعل فطري للتواصل مع هذين الشخصين اللذان يشاركانه البيت، لكنه لم يكن يجني غير دفعة من هنا وإزاحة من هناك، كأنه حشرة يبعدها عن طريقهما.

لكنها فترة وانقضت ولن يذكر هو منها شيئا، أصبح الآن أكبر بقليل، أكبر بالقدر الذي يجعله يطعم نفسه ويسقيها، يأكل مما وضع أمامه المهم أنه يسكت جوعه، أي شيء يجعله يقف على رجليه، أكبر بالقدر الذي يجعله يغير ثيابه وحده، ثيابه التي لم يكن مهما أبدا أن تكون نظيفة، مجرد خرق بالية مع أنه في بيت أكبر تجار القماش، كان لازال يشارك تانيا وغيلاس غرفة البيت، لا يصدر صوتا ولا أي فعل مزعج، فصوت غيلاس كفيل بكم نفسه، وقد يتلقى صفة من حيث لا يدري أو ركلة بكل بساطة حتى دون سبب، عندما جرب أن يناديهما بأبي وأمي لم

يجد إلا الرفض لهذه المسميات، أدرك ولو إدراكا بسيطا طفوليا أنه مرفوض هنا.

بعد أن تجاوز السابعة من عمره أصبحت حياته أكثر سوءا رغم أنها لم تكن حسنة أول الأمر أو حتى طبيعية لكنها انقلب جحيما، وأول الغيث أن ينتقل للنوم في أدايني مع الماشية...وتسرب الوعي إليه باكرا فوجد نفسه بين رجل قاس، لم يستطع حتى أن يكون سيدا عادلا فكيف به أبا، جعل منه غلاما وعبدا ذليلا يعمل بلا كلل ولا حتى أجر، يمنّ عليه باللقمة والغرفة التي تأويه، بمجرد أن أصبح قادرا على حمل نفسه صار يحمل معها لفائف القماش، يرتب المخزن، يعمل طول اليوم في توصيل الطلبات لزبائنه حتى خارج قرينتهم ثم يعود إلى البيت ليلا ليجد هناك تانيدا التي بدورها تصب كل ضغوطاتها وظلم زوجها عليه، نام ليال عديدة بلا أكل ومرات كانت تبالغ أكثر فتحرمه الماء، لتستمتع بدموعه المنهمرة، وأحيانا تتلذذ برائحة الشواء التي تفوح

من يديه بعد أن تضع عليها سكيننا ساخنا، في كل مرة حاول فيها أن يعرف من هما بالنسبة إليه إن لم يكونا والديه، فلم يكن يجد إجابة لذلك غير كلمة أنه لقيط وابن شوارع وانهما باب الرحمة الذي فتح في وجهه.

كان الله يمنحه القوة ليتحمل كل هذا فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها، ومن حيث لا يعلم أحد تأتيه ابتسامة استخفاف بكل ذلك، ومع مرور الوقت لم يعد لايثري دموع تنزل، ولا قلب يرثى لحاله أو يؤلمه، وحتى اسمه ذاك الجميل فقدته وأصبح الجميع يناديه آرزو لما فيه من صلابة لا يهزمها شيء.

يجلس أمام الباب وأمامه صحن به زيت الزيتون وبيديه القليل من الكسرة يسكت بها جوعه، بالمقابل له تجلس تانيليا وغيلاس يتناولان غذائهما غير منتبهين لذلك النكرة هناك.

-سيدي، لقد كبرت وأريد أن أرتاد المسجد مع الأطفال للتعلم.

لم يجد جواباً من سيده، وهذا في حالته بحد ذاته جواب ويعني الرفض، يعني تجاوز الموضوع ولا تتكلم فيه ثانية، رمقته تانيلاً بنظرة استفزازية وابتسمت كأنها في حرب ربحتها لتوها.

-قلت أريد التعلم، لقد تحدثت مع الشيخ وطلب موافقتك.

كان حذاء غيلاس يطير في السماء في طريقه إلى رأس أزرو الذي فر سريعاً، حامداً الله أنه كان أمام الباب.

-أبناء الشوارع مثلك لم يخلقوا للتعلم، أنت هنا لتخدمني، أسمعني هذا الحثالة يريد أن يتعلم.

قال ذلك وأدخل ملعقة الخشب الممتلئة بالكسكسي حتى تناثرت حباته على وجهه وثيابه.

-لابد انه فهم عطفك بشكل خاطئ ونسي أنه مجرد نكرة، لا
تشغل بالك به، كلم الشيخ أن يطرده ما إن يراه بقرب الجامع، يا
له من تافه.

شعر بحزن عظيم، تحمل حرمانه من الأكل والملبس والعطف،
لكن الحروف كانت بالنسبة له قشة النجاة، لطالما سمع أن المتعلم
ذو قدر عال، أراد أن يمسخ اسمه من قائمة اللقطاء إلى قائمة
حفظة القرآن، القرآن الذي كان سبيله الوحيد لخروجه مما هو
فيه، ويبدو أن غيلاس قد فهم ذلك فأصر على الرفض يريده
عاملا أجيرا عبدا جاهلا.

فصنع لنفسه فسحة جمال وحيدة ومتنفسا يلجئ إليه، في أن
يذهب إلى الجامع بعد الظهر خلسة عن غيلاس وهو في رحلته
في توصيل البضاعة، فلم يبق لأزرو غير النوافذ ليقف تحتها

ويتعلم ما استطاع اصطياًده من حروف وكلمات وآيات تكفيه
ليصلي.

-7-

قامت تافسوت على عاداتها باكرا تراقب أمها، تحاول ان تتعلم
منها كيف تحضر الكسرة، وبما انه الربيع فيمكن ألا تكون القهوة
وحدها سيدة الصباح ولكن يرافقها حليب الماعز، تستمتع بها
وهي تدندن شيئا مما تحفظه من أغاني الجدات، وبعد ان عاد يوبا
من صلاة الفجر التفوا حول أكوابهم

-يا بنيتي سأسبقك اليوم إلى الحقل، بعد أن ينتهي الشيخ
أسرعي إلي.

-ان شاء الله أ دادا.

-خذوني معكم أم أنه لم يعد لي مكان في قلبك يا يوبا أخذته كله
هذه الربيعية الضاحكة.

-بل سنعود إليك سرّيعا (ثم كلمها بصوت خافت وقد غمزها)

تعلمين أنّي أغار عليك يا تينهنان وأخاف أن يسمع غيري

موسيقى ضحكك.

ضحكت وقد غرست وجهها في صدرها خجلا وكأنها مراهقة في

أول لقاء غرامي لها.

قام يوبا متوجها إلى حقله، أما تافسوت فقد بقيت تراجع لوحتها

حتى تحفظها جيدا، وضعت تينهنان قدرها على الكانون لتحضر

مرق الكسكسي، ثم أحضرت قصعتها لتفتل حباته، الكسكسي كان

تقريبا طعامهم اليومي، قد يختلف نوع المرق قليلا ولكنه يبقى

سيد المائدة بلا منازع.

الشمس تتوسط كبد السماء، كان يستظل بشجرة زيتون عملاقة،

قد مر على غرسها أجيال طويلة، تجلس هي على حجر وضعته

ليكون وجهها مقابلا له، تحب أن ترمق عيونه وهي تقرأ الكتاب
الذي يكون عادة ثالث المشاركين لجلستهم...

-توقفنا أمس عند المشهد الأول، الفصل الرابع من هملت

"المقبرة"

- "كان لهذا الرأس قديما لسان، وكان يعني، أنظر إلى هذا الم

الممت ت هن الممتن يلقيه بامتهان ... دادا ما معنى ممتن

وامتهان؟

-أي صاحب المهنة، والامتهان أي بحرفية (لاحظ ابتسامتها

فعرف أنها فهمت) أكملني.

- "أنظر إلى هذا الممتن يلقيه بامتهان، كيف إذن قذفه إياه لو

كان رأس قابيل؟ أما يحتمل أن صاحب هذه الجمجمة كان

سياسيا عظيما؟ أو كان رب صولة، ودولة عليه لمحة من عزة

رب العالمين؟" ... لم أفهم جيدا ماذا يقصد هملت هنا.

-يتحدث هنا يا طفلتي أن الإنسان بتعوده على الشيء يفقد هذا
الأخير أهميته في عينيه، كان للميت والموت والجمام هيبتها
ووقارها عند حفار القبور في أول الأمر لكنها اليوم أصبحت
جزء من مهنته لا أكثر، وهملت هنا يتدمر منه كيف أنه لا يعير
لها أهمية حسب ما كانت تشغله قبل أن تكون جمجمة، يطرح
نظرية أن لماذا لا يحترم البعض كياننا ونحن أموات كما كان
يفعل ونحن أحياء؟ لماذا لا تستمر مكانتنا معنا بعد أن يتخلى عنا
حتى لحمنا ونصير عظاما مبتسمة فقط، أما من وجهة نظري
الموت هو الحقيقة العادلة الوحيدة، كلنا سواسية لا فرق بين
غني ولا فقير، لا شريف ولا وضيع، هل فهمتي الآن؟

هزت رأسها الصغير علامة للإيجاب، ثم طلبت منه أن تتوقف
عن القراءة حتى تثبت كلماته برأسها، واستأذنته أن يسمح لها بأن
تذهب للغابة القريبة وتبحث عن بعض الأزهار لتقدمها لوالدتها
وراحت تركز كفراشة خفيفة جميلة مليئة بالحب.

ظل يوبا مكانه وقد نزل بجسمه قليلا وكأنه قد تجهز لقبولة خفيفة
ريثما تعود تافسوت، لكنه أحس بأحدهم يقترب منه ودون أن يفتح
عينيه قال

-هل عدت بهذه السرعة حبيبتي

لكنه لم يجد ردا، فتح عينيه ليجد سكيناً يعكس أشعة الشمس،
ارتقى ببصره لتلتقي نظراته مع نظرات آكلي التي كانت تقذف
شررا وبعض الخوف وشيئا من التردد.

-لماذا؟

**-لأن يهملك أن تعرف السبب على كل ستكون بين الجماجم التي
كنت تتحدث عنها قبل قليل.**

- أرجوك ليس أمام ابنتي قد تعود الآن.

-الآن وليس في أي وقت آخر، الغابة ستشغلها عنك فلا تقلق

(وابتسم بلووم)

-الحمد لله الموت عادل وسنلتقي هناك

وقبل أن ينهي جملته كانت السكينة مغرورة في صدره، كأن آكلي
خاف أن يتراجع، أو أن تؤثر فيه كلمات من تعود غرس المحبة
في القلوب كما يغرس السكين الآن بقلبه، كان الحب يفيض منها
كما يفيض الدم منه، كانت صورته المبتسمة لا تفارق خيالاتهم
تماما كما نحتت الآن بعيني قاتله.

بعد أن تأكد أن السكين قد كادت تخرج من ظهره، استقام واقفا
وأزال عنه العباءة التي قد شكل الدم عليها لوحته المرعبة.

كانت قد عادت لأبيها لتسأله إن كان بإمكانها أن تبتعد أكثر لأنها
لم تجد زهورا كثيرة هنا، لكنها تسمرت برويتها لأكلي يقترب من
والدها، سرى الرعب بجسدها النحيف، واستبدلت حمرة خدودها

صفرة الفزع، بحركة انعدم صوتها خبأت جسمها خلف شجرة
وراقبت بعيونها ما كان يحدث، وهي في حالة عدم تصديق وفهم.
أتى المساء على غير ما حملة الصباح، عادت تافسوت إلى البيت
ملطخة بالدماء، وما إن رأتها تينهنان تدخل بذلك المنظر المرعب
حتى كاد يغمى عليها، تقدمت إليها وأمسكتها من يديها الصغيرتين
المتجمدتان، كانت تبدو كخشبة لا تتحرك ولا تحس، بملامح ثابتة
لا تفسر، سألتها بلهفة وقلق

-حبيبتي من أين كل هذا الدم، أين جرحك، تكلمي أرجوك.

زاد سكوت تافسوت من هلع أمها التي كانت النار تحرقها من
الداخل ولم تنتبه إلا وجارها يقف أمامها، بوجه تلتهمه الحيرة
كمن يحمل جمرة إن تركها اكنوى بها وإن قذفها أحرقت البيت،
لكن أحلى الأمرين مرّ وواجهه يملي عليه أن يفك تلك
الاستفسارات إن كان يعرف شيئاً، فجمع كل شجاعته وتكلم أخيراً

-صبرا يا تينهينان، إنه قضاء الله، يبتلينا بصبرنا عن نحب.

تركت تينهينان ابنتها واتجهت إليه كأنه رجل مقدس يحمل إليها رسالة الإله، وهي تقول كلمات تتداخل فيما بينها متسارعة تود أن تخرج كلها من فمها دفعة واحدة.

-ماذا حدث؟ أين سقطت وأين يوبا؟

سماع تافسوت لهذا الاسم كان كفيلا أن يجعلها تنفجر بالبكاء وتهرع لأمها وتخبئ نفسها بين ثيابها، فردّ الرجل بكل تأثر ووجل.

-وجدته مطعونا على التلة في حقلكم، وتافسوت تمسح دماءه

تحاول إنقاذه، تماسكي أرجوك.

لم يكمل كل ما أراد قوله، حتى هوت تينهان على الأرض كورقة
خريف لم يعد لها غصن يحملها، كيف لا ويوبا هو سندها
وشريكها ونصفها الذي بدونه لا تكتمل.

إنه الحزن إذا قرر فجأة أن يرخي أستاره على تلك العائلة لكن
أستاره هذه كانت ثقيلة جدا حجبت ضوء السعادة تماما.

مرّت تلك الليلة طويلة جدا، فصوت تافسوت وصراخها بين
الحين والآخر كان يحرق روح تينهان التي لم تتمالك قواها حتى
تُطمئن ابنتها وتطمئن عليها، اجتمع كل سكان الدشرة في ذلك
البيت الصغير بمساحته، الكبير بسمعته الطيبة، البيت الذي كانت
تعج السعادة فيه، امتلأ نواحا وبكاء، التفت النساء حول قصاعهن
لتحضير الكسكس، انقسم الرجال بين من يخرج للقرى المجاورة
ليبتاع الخضار وكل ما يلزم لإطعام الجميع كصدقة على روح

ذلك الرجل الطيب، بينما ذهب رجالان إلى الجبل لإحضار
الأحجار التي تستعمل كسقف للقبر.

أطل الصباح وأمطار العيون أغرقت أودية الخدود، النساء يكدن
أن ينهين عملهن في الطبخ، أما الرجال فقد حملوا جسده المغدور
لتغسيله، ثم التفوا حوله للذكر حتى يؤذن الظهر.

مشى الجميع في موكب خيمت عليه هالة روحانية إيمانية مهيبة،
الكل يكرر "لا إله إلا الله محمد رسول الله" حتى بلغوا المسجد،
صلوا عليه صلاته الأخيرة، ثم نقلوه مشيا حتى المقبرة، الطريق
لم يكن طويلا لكن الهم والحزن جعله أميالا لا تنتهي.

وُضِعَ يوبا في مثواه القبل الأخير والكل يدعوا أن تكون الجنة
مثواه الأخير، غمروه بالتراب المعجون بدموعهم، فقد مات
رسول الحب بينهم، مات من كان لا ينام حتى يصلح بين
المتخاصمين، مات من كان يُعَلِّمُ الجميع أن القلب النظيف هو

غنى صاحبه، مات وقد اغتاله قلب أسود لم يتعلم من كلامه
شيئاً.

تكاثف الجميع وضم اليد لليد ليمسح دموع تينهنان ويمحي صورة
يوبأ المضرجة بالدماء من عيني تافسوت لكن دون جدوى.

مرت أيام العزاء وظل الحزن جاثماً على قلبي تينهنان
وتافسوت، كانتا كعصفورتين جريحتين تئنان دون أن تجدا يد يوبأ
التي كانت مرهما لهما، الشيء الوحيد الذي كان ليريحهما هو أن
يعرفا غريمهما، ويعرف القصاص طريق بيتهما، لكن ذلك لم
يحدث فتافسوت هي الشاهدة الوحيدة على ما وقع لأبيها، غير أن
فتح الموضوع معها كان شبه مستحيل، فنفسيتها جد متعبة.

ولأن المصائب لا تأتي فراداً، لم يتحمل جدها خبر وفاة ابنه، ولا
فكرة أنه بقي وحيداً فسلم روحه راضية مرضية.

تذكرت حوارها مع والدها يوم أجهضت تينهان، ولم تجد بعد
جوابا لماذا الموت يحوم حول من تحبهم، إلا جملة أن للموت
كأس لا بد أن يشرب منه الجميع.

قلّ كلامها، وكثر جلوسها بمفردها، ويوما بعد يوم صارت
الوحدة تكبر داخلها وأصبحت مكتفية بأمها عن الجميع وحتى هذه
الأخيرة لم تظفر منها إلا بالقليل الذي لولا الحاجة لانقطع، لكنها
رضيت بذلك كعصفور تكفيه فتافيت ل يبقى على قيد الحياة.

الفصل الثاني

غيرنا من يصنعنا وواقعا يعجننا غصبا عنّا

عوضت تافسوت جلستها المقدسة عصرا في الحقل مع والدها،
بجلسة أخرى لا تقل حميمية عن الأولى، ظلت على نفس عاداتها،
تختار أحد تلك الكتب، ثم تقصد المقبرة لتقضي وقتها هناك، مع
أن المقبرة موحشة، مجرد كومة من الحجارة مرصوفة بعناية،
فهم لا يبنون القبور بل فقط يضعون لها علامات، قبر الرجل
يوضع فوقه حجرين الأول عند رأسه والثاني عند قدميه، يضاف
حجر ثالث وسط القبر لتمييزه أنه لامرأة، وتكون القبور شبه
متلاصقة، كأنهم يضيقون المسافة بينهم ليتمكنوا من إيجاد أنس
بدل الوحشة، ولأنه لا مكان للجلوس، كانت تفرص أمام قبر
والدها وتقرأ بكل هدوء ما إن تباغتها الدموع، تضع الكتاب جانبا
وتسلم روحها للتأمل، رغم أن المرأة في القرى القبائلية لا تزور
المقبرة حتى إذا أصرت أن تفعل ذلك فسيكون في الصباح الباكر،

لكن من كان ليستطيع أن يمنعها أو أن يقف في طريقها، كانت
روحا مسحوبة إلى هناك غصبا عن الجميع...

في إحدى جلساتها تلك، وهي على حالتها لم تتغير، تنظر إلى
الأفق البعيد، إذ أحست بيد هزيلة وضعت على كتفها، التفت بكل
ثبات ووداعة كأنها تعلم بوجود صاحب اليد في المكان قبل
اقترابه ثم ابتسمت إليه، كان رجلا عجوزا بملابس تكاد تكون
أسمال متسول، ضعيف البنية، يتكئ على عكاز، أخبرها أن اسمه
أمّاي، رحال يجول بين القرى، بل الأصح أنه يجول بين مقابر
هذه القرى، وبالهدوء نفسه الذي لقيه منها قال كلماته كأنه ينطق
عن حكمة ومعرفة

-أرى في عينيك شيئا غريبا يا بني، شيئا كان سببا في أن

أقطع خلوتك.

-عنه صديقي الوفي ومن أصبح أكثر من ظلي لا يفارقتي لا
في ليل ولا نهار، بل أنه اتخذ من عيوني سكنا له، إنه الحزن يا
عم.

قالت كلماتها هذه وقد ذبلت عيناها وغارت ابتسامتها المتكلفة،
كان كل ما فيها يصرخ بالتعب.

اتخذ أمّاي من تلك المقبرة مقره الجديدة، فهو يصر أن المقابر
هي منازلنا الحقيقية، كان يكرر دوما مقولته الشهيرة

"هنا تقطن الحقيقة لمن أرادها، وهذا هو المكان الصالح الوحيد
على سطح المعمورة."

يجلس كل يوم ينتظر تلك الصبية التي أوقدت شعلة الفضول في
نفسه، والتي لم تكن تتأخر أبدا عن موعدها، كأن سرا كبيرا
يجذبها إلى هناك بدون إرادة منها، على بعد بضع قبور، يحط
رحاله ويراقبها، ويستمتع بما كانت تقرأه من حروف ذهبية

بصوتها الملائكي الدافئ المغلف بالشجن، يتمم بكلمات تشبه
التعاويذ، التي رغم سماعها لها لم تكن تفقه منها شيئاً.

تمر الأيام وحالهما في تقارب والعلاقة في تحسن مستمر حتى
أصبحا صديقين، تقلصت المسافة بينهما، وصار مقعد واحد
يضمهما بجانب قبر السيد يوبا، علّمها تلك التعاويذ فأجادتها
ببراعة، كما علّمها فنا كان بارعا فيه جدا، فن قراءة العيون
والأفكار، حاول ما استطاع أن يفرغ كل ما في جعبته في عقلها
وقلبها الصغيرين بحكم السن والتجربة الكبيرين لديه، وقد كان
حاذقا جدا في الفراسة، يصب كل ما قد ناله من تلك القبور
وسكانها وحتى زوارها على روحها الخام، كانت تملك طاقة
روحية عجيبة جعلتها تحوي كل ذلك برحابة حتى أنها قد تفوقت
عليه بسرعة لم يتوقعها، تأملها الطويل، صفاء روحها، تركيزها
وقدرتها الكبيرة على الملاحظة هي المفاتيح التي اعتمدت عليها
لنفتح عقول البشر من حولها، ومع مرور الوقت اكتشف عنها

أمورا عدة جعلته يقدها، مثل أنها تراودها أحلام تشبه ما يسمى
بأحلام اليقظة، غير أن ما يميز أحلامها عن أحلام البقية أنها
كانت تتحقق كما رأتها أو في أسوأ الأحوال إن لم تكن مطابقة
فتؤول لنفس النتيجة...

كانت في إحداها تتأمل القرية من أمام باب الفناء، انتبهت بسرعة
إلى بيت جارهم، فقامت بسرعة إلى داخل الدار حيث تينهانان
مشغولة بتحضير العشاء لتخبرها أنه عليهما مساعدة جارهما فانار
عظيمة تآكل بيته، لم تتأخر تينهانان فألقت كل ما كان في يديها،
حملت جرة الماء، بمجرد أن فتحت باب الفناء، لم تجد شيئا مما
قالته تافسوت، فزعت قليلا لحال ابنتها، لكنها تماكنت نفسها
والتفت إليها وهدأت من روعها، أفهمتها أنها مجرد تخيلات،
لأنها لازلت تعاني نفسيا.

لكن بعد يومين لا أكثر، أفاق تينهان على صراخ الجيران،
فذلك البيت فعلا يحترق...

أخبرتها تينهان أن زوجة جارهم كانت في البيت ولولا لطف الله
لاختنقت بالنار.

-الموت كأس سيشرّب منها الجميع.

هذا فقط ما كان ردها على الحادثة.

بعد ذلك بأسبوعين، طرقت تافسوت باب أحد بيوت القرية
وانتظرت أن يفتح، بعد لحظات أطلت فروجة بلباسها القبائلي
الأصفر ومنديلها المزرکش على خاصرتها

-صباح الخير تافسوت...

لم تمهلها لتكمل كلامها وقالت

-إن أحد الجنّة يترصد ابنك، فاعتي به

واختفت عن ناظريها، وتركت فروجة تضرب كفا بكف تبحث
عن ابنها الوحيد، ورغم شكها في صدق ما تقوله هذه الفتاة لكنها
خافت، فهذه الحكايات كانت تكبل المكان، الجان والحجابات
والتعويذات لها مكانتها في معتقداتهم كما هو حال الجميع في
وقت مضى...

مضت ساعة كاملة وهي تضرع الفناء ذهابا إيابا وعليّ ابنها لم
تجد له أثرا، حتى سمعت صراخه خارج البيت، وضعت شيئا
على رأسها وخرجت تستطلع الأمر.

أخرستها الصدمة وجمّدت اوصالها، كان عليّ بعينين حمرأوين،
يصرخ كالمجنون وقد مزق ثيابه، يجره والده إلى البيت شبه
عار، استفاقت بعد أن أمسك قنورتها يكاد يشقها نصفين، عانقت

طفلها والهلع يكاد يخطف عقلها، الذي يحاول أن يفكر كيف
تخلص روحه من ذلك الجني الذي سكنه...

-يا رجل أسرع لببيت يوبا رحمه الله واحضر ابنته تافسوت.

-وما دخلها؟

-ستفهم بعد قليل أسرع لم أعد أستطيع التحكم به.

مرت لحظات أحست فروجة أنها عصور طويلة، وها هي
تافسوت بكل هدوء تقترب منهما، طلبت من والده ان يلفه بلحاف
كأنه قماط، وأجلسه أمامها بقيت تقرأ القرآن عليه وترتعد بجسدها
حتى عاد الفتى إلى وعيه، كان منهكا جدا، غط في نوم عميق
بعدها.

أخبرتھما أنها قد طردت الجنی، لكنه قد يعود ووقتها لن تملك له
حلا، لم یجدا فی قاموسهما البدوی كلمات تلیق بشكرها علی
معروفها هذا سوى كمية معتبرة من زيت الزيتون.

زيت الزيتون یعتبر فی بلاد القبائل علاجاً لكل شيء حتى أنه
تنصل من اسمه فی بعض المناطق لیصبح زيت قبایل، بفضلہ
شعور النساء هنا جميلة لماعة، تكفی ملعقة منه مع حبة بیض
تضاف إليها ملعقة عسل أصلي إذا استوت للقضاء علی السعال،
ملعقة منه علی الریق علاج الكثير من المشاكل منها الإمساك،
یستطیع وحده أن یكون صیدلية القبائلي بامتياز، وحتى للشكر هو
هدية قيمة.

أفاقت الدشرة علی جنازة الطفل علي الذي لم یفق بعد نومته تلك،
الجن لم یرتح إلا بسحب روحه من جسده.

-الموت كأس سیشرب منها الجميع.

قالتها وهي تحتضن فروجة محاولة تهوين الامر عليها، فنحن
نشعر بالراحة عندما نعلم أن البلاء عام ولم يختصنا من دون
البشر ليسقط على رأسنا.

انتشرت الحادثة بين سكان القرية، وهو حال القرى الصغيرة لا
يمكن ستر أي شيء فيها، كل حدث يعمّ كالطوفان حتى يصل لكل
أذن هناك، أصبح الكل يطلب رضاها علها تخبره ما الذي
سيحدث له في مستقبله، فالناس هكذا بطبعهم يحبون التمسك بأي
قشة تنقذهم من يد القدر، يبدون كمن غرس بذورا فاسدة ويخاف
أن يراها أشجارا سامة تلتهمه.

أقر الأهالي أن تلك الشابة ليست طبيعية، قد يكون لها جني أو
شبح يخدمها، فلم يكن من الصواب أن تتلطح بدماء والدها ولا
حتى أن تراه وهو يقتل، والبعض لام أمّاي على وضعها
وزعموا أنه قد سحرها بتعاويذه، لكن ذلك العجوز المسكين كان

عاجزا أمامها، فقد جعلته يحس بجهله وفراغ كل ما عرفه، ماذا يفعل كأس الماء أمام البحر. غير أنهم كلهم اتفقوا على أن بقاءها في المقبرة غير لائق، وسيجعل حالتها تزداد سوءا، ومن بعد ذلك سيفكر في الزواج منها، فهذا هو مصير كل فتاة هناك، أي تصرف منها، أو حدث يصادفها بفعل القدر، يربطه السكان بالزواج، البنت لديهم مشروع زوجة وأم لا غير، عليها أن تحافظ على سمعتها من كل خبر أو شائعة، فكل الأنظار تطوف حولها، وحتى صغير تلك الأخبار المتناثرة في كل مكان قد يجعلها مشروعا فاشلا.

من بين تلك الأحلام التي كانت ترويه تافسوت لأمتاي، واحد فقط تمنته أن يصبح حقيقة، كانت تراه أنه حلم حياتها، كلما أغضت عينها، رأت نفسها في المقبرة، يقابلها شاب طويل قوي البنية بشعر أجعد طويل أيضا، يرفع يده بهدوء إليها ويخترق بها

صدرها مخرجا مضغة سوداء، يرميها بعيدا ثم يتحول بعد ذلك إلى نجم ويرتقي إلى السماء إلى أن يختفي.

شغل ذلك بالها كثيرا وأصبح أكبر همها أن تجد ذلك الشاب، لأنها صدّقت جدا أنه الذي سيقضي حاجتها ويحررها من حزنها المكبوت، ذاك الذي أصبح يمزقها ويسرقها من نفسها.

بحثت عنه في القرية كلها، بين كل سكانها وعمالهم، وكانت كلما سمعت عن شاب بتلك المواصفات، ذهبت خلسة إليه ونظرة واحدة منها كفيلة أن تعرف إن كان المقصود أم لا بفراستها التي تعلمتها ومن ثم من مواصفات حلمها، وقد جعلت أمناي ذاك العجوز يساعدها في البحث عنه، حتى كادت أن تفقد الأمل.

في أحد المرات وهي في طريقها إلى مقبرتها إن صح القول، سمعت أحدهم يتكلم عن عامل في متجر القماش في إلماين، كان يصفه لابنه حتى يتمكن من التعرف عليه، ويعيد له القماش الذي

اشتراه فهو لم يناسبه، لا وقت له للذهاب بنفسه، لفتت أوصافه انتباهها إلى الإصغاء لحديثهما، ورغم بعد المكان الذي يتواجد فيه المتجر لكنها لم تأبه لذلك وقررت أن تذهب إليه، وما عليها إلا أن تنتظر يوم الإثنين.

عادت إلى البيت وأخبرت أمها بأنها ستذهب يوم الإثنين إلى السوق، حتى لا تقلق عليها، بالرغم من كل تنبيهات تينهان فالسوق عادة للرجال، لكن ذلك لم يثنها عن عزمها وإصرارها على تطبيق قرارها، حتى أمّاي اقترح مرافقتها لكنها رفضت، أما إخبارهما عن سبب ذهابها لم يكن وارداً.

-9-

-أيها الأبله عديم النفع...أزرو تعال إلى هنا، لما لم تأخذ هذه

اللفائف إلى المخزن؟

كان هذا غيلاس يحمل سوطا يضرب به باب المحل كعلامة تهديد
لذاك الفتى.

- سأتي حالا، لن يقصر القماش مترا لو تأخرت قليلا، أنا أكل.

أما هذا فايثري، يتكلم وهو يلحق أصابعه بعد إتمامه لما كان يأكله
بكل برودة كأنه هو السيد وليس العكس، فلم يخفه لا ذاك الصوت
الخشن ولا السوط ولا حتى غيلاس نفسه وتهديداته المتكررة،
كيف يخاف وهو الذي تعود جسمه كل أنواع العذاب منذ صغره
والفضل في ذلك لتانيايلا التي جعلت منه ككيس رمل الملاكمة
تعدل به مزاجها.

رفع لفائف الحرير على ظهره القوي وخرج من المتجر برأس
شامخ، كأنه يتحدى الهواء وكل عناصر الطبيعة وجميع من يفكر
في خفضه، يؤكد أنه موجود رغم أنوف الجميع، سلك طريق
المخزن وعيناه لا ترى غيره، حتى سمع صوتا رقيقا كعزف
القيثارة، حنونا كنغمة أم

-هل أنت هو ايثري؟

توقف مصدوما متسائلا، من يعرف اسمه إذا كان هو نفسه كاد أن
ينساه لولا انه يكرره وحده ليلا، تمهلّ ولم يلتفت إلى مناديه علّه
يسمع اسمه مجددا بذاك اللطف والاحترام وحتى يتأكد أنه
المقصود، انبعث الصوت نفسه إلى آذانه لكن هذه المرة بنبرة
أكثر ثقة

-أنت هو، هل تملك وقتا لكلمتين فقط؟

التفت ايثري هذه المرة بسرعة ليعرف من أكّد لها، من الثالث
الذي مازال يذكر اسمه، غير أنه لم يجد أحداً، أتمت الفتاة كلامها
غير مهتمة بضياعه بعد كلماتها

- لكن لن أستطيع الكلام الآن فالمكان غير ملائم، لكن سأنتظرك
مساءً عند إنهاءك لعملك عند المقبرة ببوفنزار، هل تستطيع؟

نسي ايثري أن يعارض كعاداته وهزّ رأسه موافقا مندهشا من
نفسه كيف وافق ولما وافق، أما هي فأدارت ظهرها وعادت من
حيث أتت، واكتفى بجملة لا ثاني لها

- كم هي جميلة.

هذه أول مرة يبدي فيها إعجابه بشيء ما أو بأحدهم، ربّما لأنه
وبعد هذا الزمن الطويل قد سمع اسمه المحبب إليه، أو ربما هو
فعل الاحترام بشخص لم يعرفه قبلا، وقد تكون فعلا قد سرقت
انتباهه ولفتته بجمالها الساحر.

بعد عودة ايثري من موعد المقبرة، الذي كان غريبا جدا
(المذكور أول الرواية)، لم يستطع فهم تصرف تلك الفاتنة والتي
حتى لم يظفر باسمها، لأول مرة جلس يراقب القمر وهو يبتسم
لأنه يريد أن يبتسم وليس ليثير غيظ أحدهم، أينما حوّل ناظره
رأى فيه بريق عينيها العسليتين الكبيرتين اللتان كانتا كمغارتين
غامضتين أراد ولوجهما ولم يملك كلمة المرور.

أما تافسوت فغادرت المقبرة إلى بيتها مباشرة، بما أنها تحتاج
لوقت وهي تراقبه حتى تتأكد أنه فعلا من تريد، جمعت ما تحتاجه
من ثياب وبعض أغراضها، مشط من هنا، كحل من هناك و
وشاحها الأبيض المفضل، بعض كتب والدها ثروتها، التي قرأتها
مرارا وحفظت كل حرف منها وموضعه وفي أي سطر كتب، ثم
توجهت إلى فناء البيت حيث تجلس تينهان التي لم تعد تطبيق
الجلوس بالبيت كثيرا بعد أن غادرت بهجته، وضعت سرتها جانبا
وقعدت أمام والدتها لتبلغها أنها ستنتقل للعيش في الدشرة

المجاورة مؤقتاً، فقط لبعض أيام ربما لأسبوع لا غير، ستعيش في بيت لعجوز هناك وتدفع لها ثمن الإقامة، كانت قد أتمت كل ترتيباتها، ثم دعته لمرافقتها وهي لا تعني ذلك أبداً، قالتها بكل ثققل، استقبلت تينهان هذا القرار بدهشة كبيرة ورفض أكبر، غير أن ابنتها كانت مصممة على الرحيل، توسلت إليها أن تبقى لكن دون بادرة أمل أن تقبل، قُبلت تافسوت رأس والدتها قبلة حارة سكبت فيها كل أذارها عن هذا القرار، حملت أشياءها وانتصبت قائمة

-سأعود يا غاليتي بعد أن أنهى عملا عالفا هناك، لا تقلقي عليّ وإن احتجت لشيء فأمنائي موجود، سأوصيه أن يكون بالقرب من بيتنا دائما.

-خذيته معك.

هذا هو حل تينهنان الأخير حتى تطمئن ولو قليلا على طفلتها،
لكنه أيضا قوبل بالرفض زعما أنها لا تريد أحدا معها، وأغلقت
الباب خلفها تاركة لغزا جديدا هناك.

كانت جراءة غير معهودة بين فتيات القرى، فكيف تترك صبية
شابة بيتها دون أهلها؟ ولا أحد يعلم ما هدفها من ذلك حتى أمها،
وهي حتى لا تملك أقارب هناك؟ غير أن تافسوت تجاوزت
مرحلة أن تترك أذنها للقليل والقال، وتنفيذ رغبات الناس، فهي
تعلم ما سيتحدث به الأهالي وهو لا يهمها، بل أنها أولت اهتمامها
وركزته صوب غايتها التي جهزت عدتها ومخططاتها لبلوغها.

بعد وصولها إلى وجهتها قصدت بيت السيدة العجوز، رتبت
أشياءها القليلة أصلا على طرف لكدر الموجود هناك، وجلست
في ركن لتقرأ ما تيسر من أحد الكتب وقضت الليلة في هدوء
نسبيا جميل، دون أن تضطر لمشاركة تلك العجوز شيئا من

الكلام أو الطعام، رغم أن هذه الأخيرة كانت قد نهشت روحها
بالنظرات...

مرّ يومان وايبثري ينتظر عودة عسلية العينين، لتجدد موعدها
القادم، فكر مرارا في زيارة المقبرة عله يلمحها هناك، شيء ما
يشده إليها، رغم تظاهره حتى أمام مرآته أن لا شيء تغير وما
يزال هو أزرو بصلابته التي يعرفها الجميع.

في الظهيرة وبعد أن رتب كل الحمولة في مكانها، اتكى على
جدار المتجر، واضعا أحد تلك الأقمشة الحريرية على وجهه،
حتى يحجبه عن أشعة الشمس اللافة، غير أنه بتهديدات غيلاس
لو رآه يعبث ببضاعته هكذا، وعندما بدأ الكرى يلاعب أجفانه
فوقت القيلولة قد حان، رُفِعَ الغطاء فرفع هو يده بعنف لضرب
رافعه ثم توقف فجأة وتجمد في مكانه عندما التقت عيناه بمغارتين
عسليتين ساحرتين

-مساء الخير، جئت لأخبرك عما أريده منك لكن ليس هنا

طبعاً، اتبعني لو سمحت.

كانت تافسوت تقول كلماتها تلك وهي تسحب القماش الحريري
برقة حريرية تناسبه وصوتها النغمي المخملي الأصيل، مما لم
يترك لايثري مجالاً للرفض، فترجل وتبعها كمسحور مسحوب
من عقله بقوة لا يعلم مصدرها، حتى بلغا زقاقاً منزوياً فارغاً بين
البيوت، وبما أنه لا يمكن إلا أن يكون فظاً كان لا بد أن يحاول
إزعاجها بكلامه

-لم تطيلي الغياب، هل اشتقت إلي.

واتبع ذلك بضحكات متكبر ساخر من وجودها وعودتها، أجمته
عبارتها وهي تنظر إلى عينيه مباشرة

- بل أنت من كان يتحرق شوقاً كي أعود، فلا تمثل دور الذكي

الحنق.

- ماذا تريدون؟ لماذا جئت إلى هنا؟ فأنا أعرف نساء إلماين

وأنت لست من هن.

قال ذلك محاولاً تغيير الموضوع، متجنباً ذلك الحوار الذي لن

يحسن الكلام فيه.

- أجل لم تخطئ، منذ زمن وأنا أبحث عنك.

-ومن أين تعرفينني حتى تبحثني عني؟ (مقاطعا إياها) ومن

دلكي على طريقي.

- أراك في أحلامي.

كان هذا أغرب جواب سمعه ايثري، أو قد يسمعه أي شخص،

لكنه غريب فقط لأنه لا يعرف تافسوت، فالجميع في قريتها

يعرف أنها لا تأتي إلا بالخارق للعادة، فأجابها مستهزئاً بالذي

تلفظت به

- عن أي أحلام تتكلمين، أوصلت أخباري إلى فتيات القرى
المجاورة.

ضحكت كثيرا على تفكيره بأنه يعتقد أنها بحثت عنه لجماله، أو
فحولته، وهي التي قاربت على نسيان الابتسام، ثم واصلت
حديثها

- أحلامي لا تشبه أحلام كل البنات، وأنت لا تعرف ولا أظنك
ستتوقع ما أريده منك، لكن إن قررت أن تسمع قصتي، فأنت
الوحيد الذي سيستطيع مساعدتي.

نظر إليها بكل برود، وأراد أن يبدو غير مهتم غصبا عن اهتمامه
- أصلا من أنت؟ وما اسمك؟ وما الذي سيَجبرني على سماعك،
حتى تفكري أنني سأساعدك.

-أنا تافسوت، أقطن في بوفنزار، أما قصتي وما مررت به

سابقا فإن سمحت لي فسأحكيتها لك الآن.

كانت متأكدة أنه سيستمع إليها حتى آخر حرف مهما طال
كلامها، مهما فصلت وجالت في الحديث صعودا ونزولا، ذهابا
وإيابا، صدقا أو كذبا لأن الفضول كاد يقفز من عينيه الجامدتين
ليتوسل إليها كي تتكلم، عدل حجرا ملقى هناك، وجلس عليه، ثم
نظر إليها ليقول كلماته بنأن يخفي كل ذلك الفضول

-تكلمي سأسمع إلى القدر الذي أستطيع، لا تكوني مملة في

السردي فليست مجبرا على سماعك ولا حتى واثقة من مساعدتي

لك.

استندت تافسوت إلى الجدار المقابل لايثري وبعد تنهيدة طويلة

أشعلت لهيب الذكريات استرسلت في تصوير حياتها بدقة

وسلاسة وألم، كيف كانت سعيدة محظوظة بعائلتها وبين سكان

قرينتها، حكّت له سبب اختيار هذا الاسم لها، عن جلسات المسجد وكيف كانت مجتهدة في الحفظ، وبعدها تلك الجلسة المقدسة تحت الشجرة الكبيرة على تلك التلة القريبة رفقة يوباء، روت عن جدها الحبيب ولوعة الشوق تحرق عينيها، واثيري منصت بانتباه يكاد لا يرف له جفن خشية أن تغيب له أي لحظة، أراد أن يستشعر كل ثانية معها، لم يعرف هذا الفتى لا حياة العائلات، لم يستشعر الحب قبلا، لم يعيش لحظة أبوية مسروقة من روايات الأمراء كتلك، إلى أن بلغت في سردها ذلك اليوم المشؤوم، لتروي والدموع تغص في عينيها كيف كان قاتل أبيها وحشا لم يرحمه ولم يرحم صغر سنها، كيف أنها اختبأت خلف شجرة قريبة، حكّت له عن أنفاس والدها الأخيرة وكلماته التي لم تفهمها، قصت له أيضا كيف ضاعف موت جدها بعده حزنها، ضغط على الخنجر في قلبها زيادة، وهنا لم تملك حكما على دمعها الذي انهمر سيولا طاهرة على خديها المحمرين من الغضب قبل

الحنن، قام ايثري آنذاك واقترب منها مادّا يده الخشنة إلى وجهها
الناعم ليمسح ما سكبته مقلتاها، تلك الدموع التي حرّكت وجدانه
حتى يُقدّم على مسحها، أما هي فلم توقفه أو تعترض كونه غريباً
عنها، فقد تذكرت حلمها وأحست أنه فعلاً من تبحث عنه ذلك
الملاك المخبّص، لترفع بعدها بصرها إليه، بنظرات المتوسل
الضعيف، نظرة الغريق إلى قشته المنقذة، ثم أخبرته عن حلمها
الذي هو بطله وختمت كلامها إذ قالت

-تأر أبي هذا ما أريده منك.

وكالمنوم مغناطيسياً، أو أنه لم يستوعب جيداً آخر جملة،
احتضنها بكلتا يديه، حضناً يحمل حنان أم عطوف على طفلها
المجروح، حتى هو لم يدرك من أين نبع ذلك العطف كله وقال
لها والتأثر يملأ صوته

- لا عليك فلا يلىق بعينيك البكاء، أظن أن الفرخ قد خلق

لوجهك فقط، وأنا من سيجعله يبتسم.

وبعكسه تماما، فقد انتبهت لآخر جملة جيدا، غرست فيها أملا كبيرا، وبقينا أن روح والدها سترتاح أخيرا، لكنه ابتعد عنها فجأة وجمد في مكانه كمن لدغته أفعى وبدأ السم يسري في دمه، ثم انسحب من المكان كله متحججا أنه قد تأخر عن عمله ولا يمكنه البقاء أكثر.

إن ما عاشه كان شعورا مختلفا لكليهما، لكنه أكثر غرابة وصعوبة على ابثري، فهو لم يعرف الحنان أبدا، ولم يحضن شخصا في حياته، حتى أنه لم يقل كلاما طيبا أو يسمعه قبلا، لم يجالس أحدا يحكي آلامه، والأهم أنه لم يتأثر لشيء طوال تلك السنوات التي مرت عليه دون أن يعيش يوما واحدا فيها، فعيش الحياة لا يعني أن نصحوا ونتمنى العودة للفراش مجددا، ويمضي

كل يوم كسابقه بلا هدف نصبوا إليه أو حدث جميل يفاجئنا، أو حتى رؤية أشخاص وجودهم وحده يكفي لجعل الجحيم جنة تروق لنا، ففي المقابل كانت حياته خالية من كل ذلك.

فما الذي يحدث له بحق رب السماء؟ ما المميز في تلك الصبية الغريبة؟ أزعه ذاك النبض بين ضلوعه، مشى طريقا طويلة بعيدا عن المتجر والسوق كلها، وهو كدمية كركوز ترقصه تلك الأسئلة التي اجتاحت كيانه، لا يدري إن كان قصد فعلا أنه سيساعدها أم أنه حماس فقط؟

ثم توقف فجأة، لتلغى الحيرة من وجهه، كمن قطع الشك باليقين، رنت جملتها القديمة بعقله لتسافر به بعيدا عن موضوعها وقصتها، 'كيف لشاب بقلبك القاسي هذا وجسمك القوي المفتول أن يكون عبدا لغيره، محير فعلا'. بقدر ما كانت جملة مؤلمة إلا أنها فتحت بابا لبحث عن جوابها، هو محير فعلا أنه لا زال

يعيش مع غيلاس كعبد مع أن عصر العبودية قد انتهى منذ زمن بعيد، هو لم يعد الآن ذلك الطفل الذي ينتظر من يطعمه ويأويه، يستطيع أن يتعد عن الكل ويعيش من عرق جبينه بكرامته، لو كان فكر بالموضوع قبل أن تثيره هي بسؤالها لما قادتة الأقدار لفتاة عابرة لتستعمله لإهانته، هي ربما لم تقصد لكنها حقيقة فعلية، كيف نسي أمر هذا السؤال حتى الآن؟ كل الأسئلة اختلطت برأسه، وكان هذا ما كان ينقصه.

غمره شعور أن الأمور كان لابد لها تمشي بهذه الطريقة، أن يلتقيها وتساله هذا السؤال ويتناساه، يلتقيها مجددا ويعددها أن ينتقم لوالدها في لحظة تعاطف ليس إلا، ويفكر بكل هذا دفعة واحدة ليقوده القدر أخيرا أنه لابد أن يتخذ قراره المصيري ويغير حياته التي لم يكن راضيا عنها أبدا.

الكون لا يخضع لمبدأ الصدفة، فببعض التفكير سنجد أن لكل
حادثة سبب ونتيجة تصبوا إليها، كل شيء بقدر معلوم، ما علينا
إلا إيجاد العلاقة بين الأحداث بعقل فطن والتدبر في حياتنا.

قرر أن يتخلى عن تانيليا وزوجها، أن يفر من عسلية العينين ولا
يراهنا ثانية، فقد شعر أنها كما ساهمت في تغيير حياته ستغير
نبض قلبه، وهو لا يريد ذلك، لا يريد له أن يدق ويحس مجدداً،
فذلك سيؤذيه كثيراً، كيف سيتحمل هذا العالم القاسي، وهذه الأيام
البشعة، عاد به شريط الذاكرة إلى كل ما مر حتى الآن، إذا الحل
وقتها كان أن يترك الجميع دفعة واحدة، واضح أنه كان ينتظر
فقط سبباً ولو كان عابراً ليتخلى عن كل شيء، فلا رابط ولو
بسيط يجعله يبقى.

في نفس ذلك الزقاق الفارغ، بقيت تافسوت لكنها تبدو أكثر
ارتياحاً منه، كيف لا وحلمها قد لاح أمل تحوله إلى واقع، أخيراً

ستلقى روح قاتل أبيها الجزاء الذي تستحقه، ورغم ذلك لم تسلم
هي الأخرى من قلب نبض بسرعة لحضن لم يكن في الحسبان،
ولم تشمله أحلامها ولا حتى توقعاتها، أغمضت عيناها لعلها ترى
شيئاً يريحها، رؤية عابرة، شبح بسمه والدها، أو حتى ذلك الحلم
أكثر وضوحاً، لكنها لم تر إلا يده وهي تمسح دموعها، إلا نظراته
التي رغم جمادها غرست فيها طمأنينة حقيقية، غادرت الزقاق
متأملّة كل تفصيل فيه كأنه يحمل كنزاً ثميناً بين صخور بيوته
وحصاها، ثم قالت وهي تخاطب نفسها

-إياك يا قلبي فلا وقت لي لنبضك الزائد عن أن تجعلني حية.

-11-

شارف النهار على جمع ما له والرحيل، حينما عاد ايثري إلى البيت، بمجرد فتحه الباب ووضع أول خطواته على عتباته، استقبلته تانيلا بكلماتها السامة كالعادة

-ما الذي أتى بك اليوم أيضا، كل دعواتي كي تموت أراها لا تنفع، آزر وأظلمت المكوث في بيتي، اذهب ما دمت لم أفعلها وأقتلك بيدي هاتين، سأفعلها ولن تجد وقتا حتى لتلوم نفسك، مللت وجودك بل أمقتك، يضايقني نفسك الذي تتنفسه معي، وحتى تلك اللقيمات ليست من حقك.

لكن ايثري ظل واقفا كأنه لم يسمع كل ما قالته أو أنه تعود عليها فلم يعد لها تأثير بكل سمها الذي تلقية على مسامعه، واكتفى بابتسامة باردة زادت وسامته، وكانت في الوقت نفسه كبنزين

سكب على نار تانيلا فألهبها أكثر، حملت صحنا كان موضوعا
أمامها، رفعته عاليا ثم قذفته به وهي تصرخ بحنق

-سأسرك يوما وتتبعثر شظاياك في كل مكان كهذا الصحن ثق
بي.

ابتعد عن الطبق وحطامه بخفة، ثم اتجه إليها وعيناه تكادان
تسبقانه، شعرت بالخوف أن يتجرأ على أذيتها، فهو لم يعد ذلك
الطفل الذي تستطيع معاقبته، لكن كلماته بددت كل ذلك الجزع.

-لا تقلقي سيدتي سأترك لك بيتك اليوم، لكن يمكن سيكون
عليك التنازل قليلا ومساعدتي ولو مرة في حياتك، وذلك بأن
تقتعي زوجك أن يتخل عني، أخبريه أنني مرضت بمرض معد،
أو أنني سرقت حليك الثمينة، (ثم ضحك بسخرية منها وأكمل ما
أراد إيصاله لها) أظنه لن يصعب عليك إيجاد مخرج مناسب وأنا
لا أشك في ذكائك.

ابتسمت بكل خبث وعلامات الانتصار قد لاحت على وجهها
كأشرعة السفينة الظافرة بعد حرب ضروس، وهزت رأسها
موافقة، تراجع ايثري وداخله شيء لم يستطع تفسيره، حياته على
وشك أن تنقلب رأسا على عقب، سيترك البيت الذي احتواه كل
هذه السنوات حتى وإن كان لم يحمل له سوى الألم لكنه بيته في
الأخير، سيبعد عن تانيل بل سيبليغها مرادها، كيف يفعل ذلك
وهو الذي قد جعل تعكير مزاجها وتنكيد يومها شغله الشاغل،
كنوع بسيط من الانتقام منها عن طفولته الضائعة، أفعلا عليه أن
يغادر الآن....

دخل أدايني، جمع أغراضه وكل ما يملك، آه وماذا كان يملك هذا
الفتى المسكين، سوى حزن عمّر معه سنينا، وآلاما في كل ركن
من تلك الحجرة، ودموعا كانت بدل الطلاء لجدرانها الجامدة،
اتجه إلى حصيرته العفنة التي كانت تمثل كل شيء، فتحتها يضع
ثيابه وينام ويأكل فوقها، انحنى بقامته الطويلة أسفلها ليخرج

سروالا وقميصا لا يُعرف لونهما الأصلي من كثرة الرقع عليهما،
وقف بعدها أمام ثقب في الحائط يمثل النافذة بالنسبة له يتفحص
الطرقات كأنه يستشيرها إلى أين يتجه، أغمض عينيه بقوة ، ثم
خرج مسرعا من هناك، بل كان يبدو هاربا من كل شيء حتى لا
يغير قراره.

بعد أن خطى خطوات أبعدته عن ذلك الزقاق حيث بيته، بدأ جديا
في التفكير في وجهته القادمة، خالجه فكرة زيارة المقبرة ليودع
قبر والدته، فقد تكون هذه آخر مرة يستطيع زيارتها، فوجهته قد
تكون بعيدة جدا، أو بلا عودة، والدته التي عرف قصتها عن
طريق الصدفة وهو في الخامس عشر من عمره، حينما كان
يعمل في دكان غيلاس كالعبد كعادته، سمع جلبة قريبا من هناك،
جذبه الفضول إلى معرفة سببها، ذهب إليهم مستطلعا الأمر، كان
التجار قد التفتوا حول رجل يبدوا أن العالم قد ركله بقسوة، بأسمال

بالية ولحية بيضاء كثيفة وشعر يشكي حاله للسماء، تسلل ايثري

بينهم ليفهم الموضوع، فسمع العجوز يقول

- أين ايثري ولدي؟ أريده.

ليرد عليه أحد التجار بخشونة أنه لا أحد بهذا اسم في قريتهم،

ويدفعه آخر ناعتا إياه بالمجنون، ويمسكه من ذراعه ثالث ليطرده

بعيدا.

كان ذلك العجوز هو يوغرطة نفسه، فيعد أن لسعته الوحدة

وقضت مضجعه، وعندما اشتعل رأسه شييا، أصبح يبحث عن

يؤنسه، بل عن يخدمه، فتذكر أن الأيام قد منحته ولدا لكنه رماه،

فتوقع أنه إن عاد فسيعود ابنه إليه مشتاقا، بحضن كبير يسعه بكل

خطاياها، لكن لا أحد في السوق مازال يذكر ذلك الاسم، الكل

ينادونه أزرو، كان هذا الأخير هو الوحيد الذي عنى له الاسم

شيئا ما، الذي أحس بمصيبة جديدة ستقع على رأسه كالصاعقة،

فأخذ يتبع يوغرطة حتى ابتعد قليلا عن السوق، وألقى نفسه على الأرض كالمغمى عليه، من تعب تلك المعركة الكبيرة بالنسبة لسنه، حتى جاءت كلمات بصوت عال قاس وخشن

-أيها المتشرد ماذا تريد من ايثري؟

ردّ يوغرطة عليه وهو شبه محطم نفسيا، يحاول الجلوس ليرى مكمه، ممسكا بإحدى يديه التي كانت تؤلمه جراء دفع التجار العنيف له

-ماذا تريد يا ولد؟ أن أفرغ غضبي عليك؟

اقترب ايثري منه وأمسكه من ذراعه بعنف أنساه عنف التجار، كان أشد منهم بكثير، ثم قال

-اجب على سؤالي فورا، لماذا تبحث عن ايثري؟

تمالك العجوز قوته وقام بلهفة وهو يحاول أن يستجدي ايثري
بعينه المستنتين

- هل تعرفه؟ خذني إليه أرجوك إنه كل من بقي لي في دنياي،
إنه ولدي فلذة كبدي.

ما إن سمع تلك الكلمات حتى أحس أن الماضي قد فتح بابه على
مصراعيه، ليقرأه حرفاً، حرفاً، ويعرف سبب تعاسته، واستغل
الوضع بذكاء، فطلب من العجوز أن يخبره بقصة ايثري مدعياً
أنه صديقه الحميم، وهو سيساعده في عودته إليه، لم يتأخر
يوغرطة ثانية واحدة، وبدأ يحكي له عن ساعات ولادته السعيدة،
وعن تيزيري التي أهدته حب الكون لولا أن المرض قد أسرع
الخطى إليها، وكيف تركهما ورحل مع أنه قدم عديد المبررات
لفعلته، وحتى حادثة السوق لم ينس ذكرها.

كانت هذه غلطة يوغرطة التي لا تغتفر، فقد مقته ابنه وهو المعروف بشراسته للكره شراهة مصاص الدماء لكل أحمر سائل، فكيف إذا وجد سببا عظيما كهذا، فلو أن هذا الرجل المائل أمامه تحمّله قليلا، لخفف وقع اليتيم عليه، وكان ممكنا ألا يعرفه حتى، أو لكانت أمه شفيت باهتمامه سريعا واعتنت به.

بعد هذه الفكرة، انتبه فجأة إلى يوغرطة وأطبق بكلتا يديه على عنقه وصرخ به بكل حنق

- أين أمي؟

وقتها فقط عرف يوغرطة أنه يكلم ولده، وأدرك حجم المصيبة التي أوقع نفسه بها، أرخى رأسه إلى الأرض، قد يكون تمنى أن يكون نعامة حتى يستطيع غرسه بين حبات التراب، ثم أخبره أن الحيران والأقارب قد أبلغوه أن تيزيري قد توفيت بعد غيابهما بأيام قليلة، وقد أجمعوا أن الحزن كان يخنقها إلى آخر نفس لها.

تراجع ايثري عنه وهو يشعر بالاشمئزاز، يرمقه بنظرات سامة،
ثم أمره أن يصطحبه إلى قبرها وقد ذبلت عيناه بحزن عارم،
اتجها سوية إلى تلك المقبرة، كانت مقبرة بقرية بوفنزار لأنها
كانت قرية أهلها، وأشار يوغرطة إلى القبر من بعيد، لم يملك
حتى جرأة مواجهتها وهي في مئواها القبل الأخير، جلس ايثري
أمامها في وجل، ثم التفت إلى أبيه وحدثه بلهجة صارمة قاصدا
كل حرف خرج من ثغره رغم صغر سنه

-اغرب الآن عن وجهي ولتتسى أن لك ابنا، والأحسن ألا تعود
إلى هذه القرية ما حييت، وإلا لن تجد مني طيبا.

أيقن يوغرطة وقتها أن لا أمل في استعطاف قلبه الذي بعد هذا
الموقف شك في وجوده أصلا، ثم غادر المقبرة بخيبة كبيرة. أما
ايثري فقد وجد مكانا يلجأ إليه، مكانا يدفن فيه أحزانه التي لا

تنتهي، ويشتكى مظلومه، بكى يومها كثيرا وحكى أكثر، وكان ذلك آخر عهده بالإحساس ونبض القلوب والدموع.

-12-

بعد أن خرج من قريته إلماين أخذ قرابة الساعتين حتى وصل إلى بوفنزار حيث المقبرة كان الليل قد أوشك أن يرخي أثوابه عليها، أخذ يفتش بين القبور عن قبر أمه، لفت انتباهه وشاح أبيض واضح وسط السواد، الأکید أن من يرتديه فتاة، كانت تبدو كملاك أو عروسة يعلوها الوقار الواضح من طريقة جلوسها، نظر إليها ثم مشى مبتعدا عنها، حتى سمع صوتا حريريا يعرفه جيدا

- كنت متأكدة من قدومك إلى هنا لكنك تأخرت.

توثر وشعر بحركة في أمعاءه، فلم يعرف بما يرد على تافسوت سبب كل ما حدث معه إلى الآن وقراره الغريب بعد تنبهه أنه لا مكان بقي له في بيته، وازدحمت الأفكار في رأسه هل يخبرها عن قراره بالانسحاب أم يبادر بسؤالها كيف يمكنه مساعدتها؟ هل سيوافق أن يصبح قاتلا لأجل فتاة لا يعرف عنها إلا اسمها؟ هل

هذا طبيعي، وأي عقل عاقل يقبل ذلك. كانت هي بالمقابل تقرأ تلك الأسئلة خائفة أن يتراجع فعلا، فقررت أن تشغل باله قليلا حتى تتمكن من إقناعه بطريقة أخرى لاحقا.

-أ لا تشعر بنسيم لاسع يمرّ على جسدك؟

أن يسألك أحدهم هذا السؤال في مقبرة سيكون أمرا مريبا، لكن نظرا لكمية الغرائب التي كانت تصادف ايثري كلما التقى بتافسوت جعلته يجيب ببساطة وارتياح

-لا تتحاذقي نحن في مقبرة، المكان موحش والليل يكتنفه وما تقولينه في ظروف كهذه أمر طبيعي.

قامت من مكانها أمام قبر والدها، وتقدمت بخطواتها وهي تكمل كلامها بكل ثقة

-لكن أحدهم يحضنك من الخلف، يبدو مشتاقا لك كثيرا، لم تزره منذ زمن.

توقفت قليلا وهي تبحث بعينيهما العسليتين تحاول اختراق جسده لترى من يقف خلفه، وهو مندهش لا ينطق ببنت شفة ثم أضافت

-يبدو من أصابعها الناعمة أنها امرأة، ابتعد قليلا حتى أراها بوضوح.

جمع كل دهشته وألقى بها بعيدا

-أتريدين مني أن أصدق ترهاتك هذه، أم أنها طريقة جديدة للتأثير عليّ بإخافتي بعد أن جربت استعطافي، أيتها الجميلة المدللة أنا آزرو وإن كنت لا تعرفين من آزرو فاسألني قبل أن تجربي هذه الطريقة، نصيحة جدي أخرى أحسن.

لم تعر تافسوت كلامه أهمية حتى أنها ربّما لم تسمعه، كانت مشغولة بالتحدث وسماع شخص آخر أو هكذا بدا عليها، هزت رأسها لترد التحية بابتسام، التحية التي لم يلقيها ايثري ولا أي أحد آخر في المقبرة، فهي أصلا فارغة إلا منهما، ثم عادت ونظرت إلى ايثري وقالت

إنها السيدة تيزيري، أظنها أمك، تشبهك كثيرا، لها نفس العيون الكبيرة لكن نظرتها تشع حنانا ورقة، افتقدتك المسكينة كثيرا.

ذكر اسم والدته أمامه كان كفيلا أن يجعله يجثوا على ركبتيه مذهولا، تلك المرأة الوحيدة التي أحبته طول حياته، فأخذها القدر منه بعنف دفع ثمنه طيلة سنوات حياته، لم يزل يفكر في كل ما مضى حتى داهمته بصدمة أخرى حينما سألته

-لا تزال تلك العلامة على كتفك الأيمن موجودة أليس كذلك؟

جعلت منه هذه الإضافة قطعة جليد حتى غيلاس وتانيا لا يعرفان بأمر هذه العلامة، من هذه الفتاة وكيف تعرف والدته، من أخبرها بعلامته؟، حاول أن يظهر متماسكا، نهض بعزم ورمى في وجهها كل تلك الأسئلة، التي تجتاح باله، فأجابته أن المرأة التي تجلس الآن بجانبه هي من أطلعنها بكل ذلك، التفت بسرعة عليه يمسك خيط الحقيقة لكنه لم يجد أحدا، لزم الصمت كي يهدأ قليلا ويفكر ويعرف بنفسه أهدافها وغايتها ثم انتبه فجأة وأمسكها بعنف وصرخ في وجهها

- أين التقيت ذاك العجوز المشؤوم، هو من أرسلك أليس كذلك، أ مزال على قيد الحياة؟ يبدو أن تحذيري له لم يجد أذنا تنصت وتعي، كان لا بد أن أجعله يستوعب بطريقة أخرى، كدت أصدقك، كنت سأجد حلا لأساعدك، تركت بيتي، تبا لك استغلتي تساهلي معك، لكنني المخطئ الوحيد كيف أتبعك وأنا لا أعرفك؟

بكل هدوء سحبت يده القاسية ثم ابتعدت عنه بضع خطوات
لتجيب عن كل اتهاماته لها

- لا لم التق يوغرطة أبدا، هذا اسم والدك أليس كذلك؟ العجوز
الذي تحدثت عنه... ايثري أرجوك اهدأ فقد أقلت روح والدتك.

هدوءها هذا كان يؤكد صدقها وحتى عيونها البريئة، وكُنَّا نشهدا
على كلامها، فانتقلت تلك السكينة إلى قلبه رويدا رويدا، وكأنه
نسي كلماته وتهديداته، عاد بعدها وجلس بقربها بوداعة الأطفال
على الأرض، وشرع في سؤالها مجددا عن أمه وكيف تعرفها،
أمسكت يده مشفقة على حاله وروحه الممزقة والتي ثارت من
تلك الذكرى العميقة في صدره، وجعلت تهدئه بحنانها تماما كأنها
هي أمه، أخبرته أن أول لقاء لها ببنيزيري كان مع أول لقاء لهما
في السوق، أمام متجر غيلاس، كانت تمشي وراءه وتردد اسمه،
لذلك عرفته هي يومها، والآن هي من أخبرتها عن اسمها ومن

تكون وعلامته وأما بيوغرة فقد قرأته من عيونه، فهي تستطيع
فعل ذلك بسهولة، أخبرته أيضا أن روح أمه تجلس بقربه عله
يحس بوجودها، وأن تيزيري قربت يداها المتجمدتين كقطع الجليد
من وجهه، غمرته حينئذ نسيمات باردة جعلت القشعريرة تتملكه
من رأسه حتى أخمص قدميه، لينتشر في كل جزء منه إحساس
سحري صيره كطفل صغير، فصدّق قلبه كل ما جرى، أيقن
بإحساسه أن أمه موجودة فعلا وإن كان عقله رافضا، والمنطق لا
يقف في صفه، مرت لحظات كان الصمت سيدها ونظرات تقول
كل شيء دون أن تنطق الشفاه بحرف.

تلك الدقائق كانت من أجمل ما مر على إيثري رغم غرابتها، فقد
حملت سعادة لروحه ظنّها لم تخلق، فكيف ترضى هذه الحياة بها
أن تكون من نصيبه، كيف سمحت له أن يجالس أمه ويحس
بحضنها حتى وإن كان باردا، وإن كانت جلسة خيالية، ثم طلب
من تافسوت أن تكمل فرحته ونشوته هذه وتساعد في رؤيتها

وسماعها كما تفعل هي، وإن كان هذا علما فسيكون عبدا مطيعا حتى تعلمه إياه، كاد يتوسل إليها كي تقبل طلبه، حتى أنه أراد أن يركع أمام قدميها لتوافق، متناسيا كرامته، رجولته وكبريائه فالنتيجة ستكون والدته، قرة عينه ، لكن علامات الأسف قد بدت على محياها حتى قبل أن تفسر سبب الاعتراض

-لا أستطيع فأنا نفسي لم أتعلمه ولا حتى طلبته، ولا أدرك كيف وصلت إلى عالمهم أو كيف انتقلوا إلى عالمي، لكن الأكيد أنهم من بادروا برفع الحجاب بيننا، في أول مرة رأيت أحدهم كان شيئا جليلا يعلوه الوقار والنور، ورغم أن وجهه قد خلى من الدم، يبدو كصفحة بيضاء، إلا أنه كان بمسحة حنان وابتسامة لا تفارق ثغره، يحب الجلوس أمام أمي لا يفعل شيئا سوى تأملها، وعندما سألتها عنه صدمتني أن لا ثالث معنا وأني أتخيل فقط، حتى أنها ضحكت ساخرة من تخاريفي كما تسميها، وطلبت ألا أصدق كل ما تقوله الروايات. لم أجد وسيلة لجعلها تصدق،

فكتمت الموضوع في قلبي ثم آثرت مواجهة العجوز، كان ذاك
جدي ايذير الذي توفي بعد أبي من حزنه عليه، لم أتعرف عليه
أول الأمر ربما من أثر الموت أو أنني لم أتخيل أنني فعلا قد
التقيه، أظنه شعر بخوفي وفزعي إذ عرفت أنه مجرد روح، فقد
كانت كلماته كلها لإعادة الطمأنينة لقلبي، أخبرني أيضا أنه ما
زال يحبني كما كان حيا وعليه فهو لن يؤذيني، ثم قام بدعوتي
إلى المقبرة ورغم هلمي الذي لم أستطع إخفاءه إلى أنني تبعته
وهناك وجدت الكثير مثله بوجوه رخامية وحركة سريعة
ونظرات ثابتة لا ترف لهم أجفان، تخيل معي فتاة في الخامسة
عشر من عمرها تعيش هكذا حدث، بقيت يومين دون أن أغادر
غرفتي والحمى تلعب بجسدي، لكنني قوية تغلبت عليها، ويوما
بعد يوم تعودت ألا أخاف منهم وأن أفهمهم، وحتى أن أساعدهم
في فك حاجاتهم العالقة في عالمنا كي يناموا بهدوء وتصعد
أرواحهم إلى حيث يجد أن تكون...

بقي ايثري يصغي لما ترويه بانتباه واستغراب في نفس الوقت
لكنه لا يملك إلا تصديقها بعد ما شعر به قبل قليل، ثم تبادرت إلى
ذهنه فكرة لم يشأ إلا أن يفصح عنها

- إذا لازلت على تواصل مع والدك، يا لحظك، حتى مفرق
الجماعات لم يقدر على التفريق بينكما.

ردت عليه بتأثر واضح، فقد حملت كلماتها ألماً كبيراً تكلف
صوتها الشجي بإيصاله

-أبي... لا أدري لما هو الوحيد الذي لا يقبل تكليمي، ودائماً يدير
ظهره لي مع أنني منذ أول وهلة استطعت أن أراه فيها وعدته
أنني سأنتقم له لكن أظن أن الوعد لم يكف، يجب التنفيذ، وأنا
بمفردي لا يمكنني ذلك لكن وأنت معي أكيد نستطيع أ لست
رسول أحلامي، أرجوك أن تساعدني، وإن وافقت أن تسرع، لا

أخفيك سرا يقتلني الحنين للحديث معه وقراءة كتبنا سوية كما

اعتدنا.

لاحظت بوادر الموافقة على محياها، فهو يشعر الآن بالامتنان لها على ما عاشه من إحساس جميل وروح أمه تطوّقه، غير أنه لم يرد عليها ردا قاطعا فقط كان عقله مشغولا بالتفكير بتمييزي يتخيل شكلها ونغمة صوتها ودفء حضنها، وأنها لم تتخل عنه رغم تخلي الحياة برمتها، وأنها تتواجد في نفس المكان معه بل وتحضنه فوق كل ذلك، غير أنه بفكرة أنها مجرد روح وأنه وسط مقبرة تأوي آلاف الأرواح غيرها... وجلس سارحا يرسل ضحكات في الفضاء كأن أحدهم يقوم بدغدغته، حتى لم ينتبه أن تافسوت قد غادرت المكان، وقضى ليلته بين تلك القبور.

أطل صبح جديد يحمل أحداث مفعمة بالحياة لهاذين الشبابين، أفاق

هو على صوتها العذب الذي تعودت أذناه على جماله

-قم ستلفح شمس الظهيرة وجهك، لم يخطنوا حينما أسموك
آزرو (وضحكت ساخرة من هيئته وحالته) كيف استطعت قضاء
ليلتك هنا؟ أظنك أخذت وقتا كافيا للتفكير.

قام بتناقل من أمام قبر تيزيري وبدون أية مقدمات أخبرها موافقته
على طلبها، لم تتمالك نفسها ولم تستطع السيطرة على مشاعرها،
وارتمت بين يديه فأطبقتها عليها ساكبا كل أمان هذا الكون عليها.
كان حضا طويلا تشابكت فيه أرواحهما، أنساهما حتى لما هما
يحضنان بعضهما، فقط كانا مستمتعان بذاك الشعور الذي
اعتراهما، شعور أن أحدهما موجود لأجل الآخر، الأحضان هي
أدوية من نوع روحاني لم ولن يستطيع العالم أن يصنع ما يعادلها
بأي شيء آخر...

كان ذلك أجمل يوم طلعت فيه شمس منذ زمن بعيد لكليهما، نالت
تافسوت مرادها وعرف ايثري ماذا تعني كلمة الحنان، ومعنى أن

يشاركه أحدهم صباحه بابتسامة وحديث ناعم دافئ. عادت
تافسوت بعده إلى غرفتها المستأجرة وبقي هو تحت شجرة لا ينو
على شيء.

-13-

هناك في بوفنزار، أفاقت تينهان عازمة على الذهاب إلى إلماين حيث ابنتها، جمعت أشياءها ثم قصدت أمناي لتطلعه على قرارها وأنها ستنقل مؤقتا فلا يمكنها ترك وحيدتها بمفردها أكثر من ذلك، لكنه عارضها ومنعها من تنفيذ ذلك بحجة أنه يعرف تافسوت جيدا وكيف تفكر، ويدرك حجم قدراتها الروحانية وعزيمتها واقتدارها على تحمل مسؤوليتها، وكثير من الكلام الذي تدركه تينهان أزيد منه، مؤكدا أن بإمكان تافسوت أن تعتنى بنفسها جيدا دون حاجتها لهما، وبقاءها طول هذه المدة دون اللجوء لطلب مساعدتهما دليل على كلامه.

أمناي هو الوحيد الذي يدرك تلك الميزة الخاصة بتافسوت، أنها تستطيع تكليم الأرواح ورؤيتها، غير أنه قد وعدها ألا يخبر أحدا بذلك، لغرض في نفسه ليس إرضاء لها فقط، فقد كان يستفيد من

الموضوع في بعض المرات كي يبلغ أهدافا خاصة وحده يعلمها،
موهما إياها أنها تساعد تلك الأرواح، لم يبلغ بذلك أن يكون رجلا
سيئا شريرا، لكنه كبقية كل البشر، يستغل كل ما يمكنه استغلاله
من هذه الحياة، حتى أنهم قد لا يعيرون أهمية لأولئك الذين
يستغلونهم، هم يرون أن الدنيا حرب، البقاء فيها لمن يمكر أكثر
تحت شعار الحرب خداع، أو غابة كبيرة لا يهتمهم أن يكونوا
أسودا لكن يحرصون أن يتقنوا دور الذئاب.

أقنعها بأساليبه الذكية مدعيا أنه يرى تافسوت في رؤاه على
أحسن حال وأنها تطلب منه أن يعتني بتينهنان ولا يدعها تأتي
إليها فهي ستعود قريبا، ليقول بعدها بفخر أن رؤاه تتحقق دائما،
يفوق صدقها حتى رؤى تافسوت.

قد فعل ذلك لأن تافسوت قد طلبته منه ووافق بعد وعدها له أنها
فور عودتها ستساعده في كل ما يحتاجها وتسخر كل قدراتها
لأجل خدمة رغباته.

ما كان من تينهنان سوى العدول عن قرارها مصدقة كل حرف
بدر من أمثاي، مستسلمة أن القدر قد وهبها بنتا لا تشبه البقية، لا
تخضع لأي شيء، خائفة أن تخالف رغبتها فتفقد ما لا
تطيعه.

وعلى العكس تماما، في الماين وبالتحديد في بيت غيلاس، الذي
لم يشغل باله غياب ذاك الفتى ولم يتذكره إلا عندما حلّ الليل
بظلمته الحالكة، فسأل تانيا أن تناديه، يريد إخباره عن الحمولة
التي عليه استلامها في الصباح الباكر، أبلغته وقتها أنها قد
تشاجرت معه كعادتهما لكن أزرو تمادى هذه المرة وحمل سكيننا

وهدها بالقتل، فما كان منها إلا طرده من البيت فقد خافت على نفسها وعلى زوجها منه ومن طيشه.

لم يحرك ذلك في نفس غيلاس شيئاً، فلا تانياًل تهمة ولا حتى ذلك اللقيط كما يراه دائماً، لكنه انزعج لأن عليه النهوض بنفسه باكراً لاستلام الحمولة وترتيبها في المخزن ثم الذهاب لفتح المتجر، فالوقت متأخر كي يخبر العاملين الآخرين بما عليهما فعله، حتى أنه لا يثق فيهما كما ينبغي، فكانت كل تلك الأعمال لا يثري، ومن ناحية أخرى غياب هذا الأخير من حياة غيلاس قد أراحه بشكل أو بآخر، فبعد أن كبر وصار شاباً قوياً، لم يعد يطيعه كالسابق بل حتى أنه أصبح يثير المشاكل بكثرة لا ينفك يهدده بأن يردّ له الصاع صاعين، فقط ينتظر الفرصة المناسبة ليذيقه من نفس كأس الألم التي جعله يشرب منها طول هذه السنوات، فجاءت الرياح كما شاءت سفن غيلاس ونام مرتاحاً ملاً الجفون غير

خائف من غدر أزرو لما يعرفه عنه من رجولة وأن ذلك الفتى لا
يعود إلى مكان طرد منه، كما أنه لا يطعن أحدا من الخلف.

التقيا مجددا في المقبرة نفسها، أصبحت مكانهما المفضل المقدس،
جلست أمام قبر يوبا وجلس هو مقابلا لها يتأمل وجهها، عيناها
الكبيرتين كجرتين من العسل، أنفها الذي يبدو دقيقا كسيف سرى
وصولا إلى فمها، كان النظر إلى فمها يشعره أنه أمام حقل من
التوت وكم كان يهوى التوت، أبعد بصره عنه ليغوص في خديها،
أيعقل أن تكون لقروية بشرة بهذه النظارة؟ تتراقص حبات
النمش كأنها حبات سمس نثرت على كعكة شهية، كانت تتسلل
من تحت غطاء رأسها بعض الشعيرات النحاسية، أغمض عينيه
وهو يتخليها بلا غطاء تركض في حقل ما وشعرها يلهث خلفها،
أفاق من حلمه وهي واقفة بالقرب منه علامة أن عليهما المغادرة،
خرجا سويا من المقبرة يمسك أحدهما يد الآخر كأنه يمسك سر
الكون والأمل الجديد لحياته، كل حسب نواياه وما تمناه قلبه، مشيا
طريقا طويلة بدون كلام مشغولا البال، اصطحبته إلى تلة

طفولتها، تلة الذكريات أين قضت أحلى لحظاتها على الإطلاق
والأبشع بلا منازع، حتى يرى أين قتل يوبا، مع أول خطواتها
هناك كان التأثر والحزن يحتلان كل تفصيل صغير منها، فهي لم
تزر المكان منذ يوم الحادثة.

جلس ايثري تحت نفس الشجرة التي تعودت أن تشاركها والدها،
وشرع في شرح صعوبة ما هم مقدمون عليه، وأن عليهما أن
ينتظرا اللحظة المناسبة التي ينفرد فيها بهدفه كي ينفذا ما
يصبوان إليه دون لفت الانتباه، فلن يغفر لهما أحد من سكان
القريتين فعلتهما إن كشف أمرهما، ثم التفت إليها بسرعة وكأن
جرس الإنذار قد رن داخل رأسه

-لم تخبريني يا عسلية العينين من غريمك والذي صار غريمي
الآن؟

ردّها على استفساره هذا كان صدمة لم يتوقعها أبداً، فكل ما جال
بباله أن القاتل قاطع طريق بما أنهما على تلة بعيدة قليلاً عن
القرية، أو أنه فلاح من أحد القرى المجاورة قد تسبب يوباً في
أذاه أو بينهما ثأر قديم فانتقم وأخذ حقه بيده، فهذه هي أسباب
القتل التي سمع بها في حياته، لكنه لم يتوقع أن يكون خصمه
السيد آكلي، شيخ تاجماعت القرية وابن عم يوباً.

آكلي ذلك الرجل الوحيد الذي لم يكن على وفاق مع يوباً على
عكس بقية الأهالي، وأما لما اقترف هذا الجرم الشنيع فكان سبباً
سياسياً مالياً محضاً، حيث أنه قد سمع وقتها أن سكان القرية قد
رشحوا السيد يوباً لأخذ مكانه وكلهم داعمون له حتى يبلغ مرادهم
ويتخلصوا من آكلي، الذي كان لا يقدم على أمر إلا إذا كان له
مصلحة يجنيها من وراءه، فلم يجد هذا الأخير سبيلاً للفوز عليه
والاحتفاظ بمنصبه في لجنة شيوخ القرية سوى تصفية منافسه
بصفة نهائية، هذا سببه الأول أما الأمر الثاني فقد كان الأراضي

المشتركة بينهما، فقد تنازل ابذير عن كل شيء لابنه يوبا،
وبالمقابل إذا توفي هذا الأخير سيأخذ آكلي كل شيء بصفته ابن
عمه حيث أنه لم يكن ليوبا اخوان.

صمت ايثري مفكرا في الورطة التي وقع فيها، لكنه لا يستطيع
التراجع وإن كلفه ذلك حياته فهو قد قطع وعدا لهذه الفتاة، ثم أكد
أنه إن كان عليهما الحذر مرة من قبل فالآن عليهما أن يحضرا
مئة مرة فوقها، وعليهما أن يفكرا في خطة تفضي بهما للثأر منه
دون أن تتوجه أصابع الاتهام إليهما، اقترح إلى جانب ذلك أن
اليومين القادمين أو أكثر سيخصصان لمراقبة آكلي حتى يكون
دقيقا عند التطبيق ويستطيع التفرد به، فما كان من تافسوت إلا
هز رأسها موافقة على كل ما قاله مع رجاءها أن لا يطول الأمر،
فهي تموت في كل لحظة وقاتل أبيها يتنفس.

سرح كل منهما بعد ذلك، استرجعت تافسوت كل ذكرياتها هناك لحظة بلحظة، مكان جلوس والدها، أول كتاب جلبته خلسة عنه وهي حتى لا تعرف القراءة فقط حتى تقلده، تعليمه إياها وشرحه المبسط وتصحيحه أخطاءها بصدر رحب، تلك الأخطاء التي كانت تتعمدها أحيانا فقط لترى ضحكته وتعطيه فرصة الكلام والشرح فذاك ما تعشقه.

أما إيثري فأطلق العنان لعينيه تجول حيث تشاء مستمتعا بتلك الرقعة الجميلة جدا، التي تطل على القرى المتناثرة، يساعده الارتفاع في جعل الإطلالة خلابة، غطت على سواد قلوب البشر، رغم أنه لم يعرف أفلاطون ولم يسمع عن مدينته الفاضلة، إلى أنه كان يراها قد ارتسمت أمامه، فبعض الأشياء رائعة كلما كانت بعيدة، ساحرة كلما شابها الغموض، ثم وأبصاره معلقة بكل تفصيل بسيط، وثغره لا يكاد يغلقه من الابتسام، قال لها

-لما لم تجعلي هذا الركن الأخاذ مكانا للقاءاتنا، لكان ذكرك في
مخيلتي مصحوبا بأفحوانة أو ريحانة بدل القبور والأرواح.

أنصتت لكلماته وهي تتأمل ملامحه، مخترقة عيونه، ثم أجابته
بنبرة مازحة تدس خلفها خبثا نسائيا

-ولما تود أن تكون لقاءاتنا جميلة وهدفها قتل؟ وأصلا لما يمر
ذكري ببالك (أبعدت نظراتها عنه وصوبتها إلى الأفق البعيد)

نصيحة أيها القوي أخف عينيك الناعستين وأبعدهما عن عيني
فأنا أستطيع النهل منهما كيفما أشاء، هذه مهارات صديقي

أمنائي وقد جربتتها بنفسك قبلا (ضحكت من أعماق قلبها وكأنها
عرفت كل أسرارها وما يحاول إخفائه بقسوته وقد سرها ما عرفت
غير أنها حاولت التظاهر بالغباء) وقد أدركت أنك تتضور جوعا.

أنكر هو ذلك زاعما أنه وهم، وأن ما تعلمته من قراءة العيون قد
فشل بامتياز معه، كيف لا وهو الذي كانت تانيلا تحرمه الطعام

لأيام، تعلم بعدها ألا يجوع وأصبحت اللقمة تكفيه حتى تأتي
أخرى. ثم قال مغيرا الموضوع هاربا منه.

-قومي وكفاك هراء، أظنك مستعجلة على التنفيذ، هيا بنا إلى
شيخكم هذا فلم أحظى بعد بشرف مقابلته فيا لها من صدفة أن
ألقاه قاتلا ولم ألقاه قبلا حتى مسلّما، قوديني إلى خصمي الذي
سقط من السماء كالقدر المستعجل تماما كدخولك حياتي من
حيث لا أعلم.

اصطحبت تافسوت شريكها الجديد إلى بيت آكلي، بيت يتوسط القرية، كبير ليس كبقية الديار هناك، له بستان متصل به، قريب من جماعت، كان آكلي دوما يحاول أن ينقل عادات سكان المدن إليهم حتى يبدو متميزا، يحب أن يبدو رجلا إفرنجيا ببدلته متخليا عن سروال اللوبيا والبرنس والقشابية، ولم يكن يشتغل بالفلاحة كالبقية بل كان يترفع عنها، ويقوم باستئجار الفتيان الفقراء للعمل بدلا عنه، متأثرا بفكرة الباشا.

جلسا في زقاق ضيق من تلك الأزقة بين البيوت مقابل داره ينتظران أن يطل آكلي، فهي تعلم وقت خروجه ودخوله، لم يمض على بقاءهما هناك طويلا حتى ظهر أمامها رجل هرم، هزيل البنية ذو وجه مكفهر كأنه نسي كيف يبتسم، مع طول ملاحظ، رجل كلاسيكي ببذلة وقبعة حجبت عيونه، ما إن لمحته تافسوت

حتى تغيرت تقاسيم وجهها وغزا التوتر جسمها، تظن إيثري
لذلك، فسألها إن كان هذا هو آكلي فهزت رأسها موافقة فلم
تطويعها الكلمات على الخروج من حلقها فالعبرات قد سبقتها إلى
هناك، أما إيثري فقد كان التعجب واضحا عليه، فكيف لهذه
الفزاعة، كما وصفه في حديثه، أن تقدم على القتل؟ ابتلعت تلك
العصاة التي كادت تخنقها، وتمالكت نفسها

-أبي هابيل هذا الزمان، رفض أن يدافع عن نفسه، كل ما فعله
أنه طلب منه ألا يقتله أمامي.

تسربت الدموع من عينيها فحتى كبرياؤها القاتل لم يستطع
حبسها، حاول هو ألا يجرجها أكثر، حوّل ناظريه عنها، فانتبه أن
العجوز لم يكن بمفرده بل يرافقه طفلين، أحدهما نسخة مصغرة
عنه، يشبهه في لبسهِ وملامح وجهه، وحتى ذاك العبوس كان
يجمعهما، مما جعل إيثري يخمن أنه حفيده، أما الثاني كان يبدو

قرويا أصيلا، وهو أصغر سنا من الأول، أكثر بشاشة من كليهما،
كانا يمسان يدا جدهما ينظران مرة إلى وجهه بكل فخر ومرة
في وجوه المارة الذين كانوا يلقون التحية باحترام يكاد يكون
مبالغا فيه.

اتجه أكلي إلى تاجماعت، وعيون إيثري تتبعه، جلس والطفلين
على يمينه وشماله، رافعا رأسه نافخا صدره، يتكلم بتعال مع
الأهالي الذين ينتظرون هذه الساعة لمناقشة خصوماتهم
ومشاغلهم في حضرته، لم يمر على مكوثه ساعة حتى استقام
واقفا خاتما الجلسة، تبعه حفيدها ودخل الثلاثة إلى بيتهم تاركين
تافسوت وإيثري غارقين في أفكار كثيرة تكلف صاحب الشعر
المنكوش بقطعها، حين بادر بالكلام وعلامة الجد واضحة على
وجهه ونبرة صوته

-من اليوم لن ترافقيني إلى أي بقعة من هذه القرية، وسنحاول
ألا يجمعنا مكان يراه الجميع مجدداً، فستكونين بعد ذلك حديث
الناس هنا، وهذا ليس لأننا لفتاة مثلك، كما أنه لن يكون في
صالحك إن لمحني أحدهم معك وبعد أن أفعل فعلتي، ستطوئك
الاتهامات وقتها فأنا غريب هنا، عودي إلى بيتك وأمك فلا
يحتاج الأمر ذكاء حتى تعرفي أنها قلقة عليك، وإن استجد أمر
ما سأزورك في البيت الذي سأعرف مكانه إن تبعتك الآن، سأتي
على شكل عابر سبيل ولنلتقي كعادتنا بعدها في المقبرة يا
عروس المقبرة.

-لم أعلم أن عقلك مرن كعضلاتك، صلب كقلبك...

-هل ظننتني غيبياً؟ تحتاج عقلين لتعيش بين بشر كهؤلاء...

-حسنا إذا سأنفذ كلامك، نلتقي في وقت قريب، أخيرا سأنام
مرتاحة الروح، فحلّمي تكاد تشرق شمسها، وأملّي بين يديك أيها
البطل.

قالت تافسوت كلماتها هذه مشرقة المحيى، ثم ودعته بقبلة مفاجئة
على خده، كانت كمن سرق حبة تفاحة من أعلى الشجرة ثم
هربت بعدها مباشرة، أما هو فقد فتحت له عالما غريبا، كان
سيكون تمثالا للدهشة بامتياز لو قرر أحدهم بنحته له وهو على
تلك الوضعية، ولو زاد الموضوع قليلا لفقد الفتى وعيه، بقي مدة
لم يعرف من الدهشة مقدارها وهو في الحالة نفسها، كل ما يدور
بباله "تافسوت" ثم استفاق ليلحقها ويعرف بيتها بخطوات سريعة.

طول طريقها، حاولت تافسوت أن تقنع نفسها أن ما فعلته كان
طبيعيا بدافع الفرحة، فرحة أن هدفها الذي قد شارفت على
بلوغه، لكن قلبها أنكر ذلك، فقد نبض نبضا مختلفا، دقاته تقول

لها رسائل مشفرة لم تستطع فكّها، نبضات ليست كغيرها من
نبض الفرح ولا النشوة ولا حتى نبض الانتصار. فما كان ذلك
إذا؟ ماذا فعل ذلك الحجر الجامد الخالي من كل إحساس بقلبها،
كل ما تفكر به هو عينيه الناعستين، شعره المنكوش، أنفه البارز
الذي يقسم وجهه نصفين، بشرته الحنطية المحمصّة بفعل
الشمس، أم عضلاته المفتولة، كادت أن تخطئ طريق البيت وهي
هائمة غارقة في تفكيرها ولم تنتبه إلا وتينهانان قد طوقتها بحضن
دافئ، حضنها المشتاق غير تاركة لها مجال الكلام، فبحجم
الحنين كانت الأسئلة كثيرة، تودّ أن تطمئن وتطفئ نار قد أشعلها
غياب فلذة كبدها.

وبين كل تلك الكلمات الراكضة من تينهانان لم تسمع تافسوت إلا
تلك الأخيرة

-أظنك بخير يا طفلي، وجنتاك محمرتان وعيناك تشعان، علك
بلغت مرادك، لن أسمح لك بمغادرتي بعد اليوم، اسمعيني ما
أقول.

أبعدت تافسوت وجهها بسرعة عن عيني تينهنان، فمن أقدر من
أمها على قراءة ما يجول ببالها، خافت أن تدرك الفوضى التي
تعيشها داخلها، ثم لملت شتاتها وأجابتها متكلفة إخفاء الرجة من
صوتها

-بلى، بلى يا أمي لن أغيب ثانية، أظنني لن أغادر البيت هذه
الفترة على الإطلاق، أحس بتعب كبير يجتاحني.

فقاطعها أمّاي الذي كان برفقة تينهنان وقتها

-صديقتي الصغيرة، اشتقت إليك واشتقت لأنفاسك المقبرة،
سترافقيني إليها، فلم أعد أطيعها بدونك ولم أزرها مذ غبت،

أقضي أغلب الوقت مشغولا بتفقد السيدة تينهان والاعتناء بها
كما وعدتك، أليس كذلك سيدتي؟

والتفت إلى تينهان كي تؤكد كلامه، لكنها لم تسايره وتظاهرت
بعدم الاكتراث له، فهي لا تريد من ابنتها أن تبعد عنها حتى وإن
كان فقط إلى تلك المقبرة. حتى تافسوت لم تبدي موافقة لمرافقته
متحججة مجددا بأنها متعبة وتحتاج لفترة راحة تلزم فيها فراشها
وبيتها.

بعد أن قيد ايثري مكان بيتها في ذاكرته، عاد إلى الزقاق نفسه
جلس وركز أنظاره على هدفه، البيت المقابل له، يكاد لا يرف له
جفن، تحوّل ذلك الزقاق إلى مقره الجديد، ينام ويقضي يومه كله
هناك فلا مكان آخر يأويه بعد ركنه الحقير في زريبة بيت
غيفلاس، يراقب طول النهار بلا كلل ولا ملل، استمر ذلك لثلاث
أيام يكاد لا يبهرح مكانه إلا للضرورة، وقد رسخت كل معلومة
أرادها عن آكلي في مقرها من عقله، فعاداته لا تتغير مع الأيام،
يغادر بيته صباحا متوجها إلى تاجماعت التي يتخذها مكتبا له،
برفقة حفيده الأكبر الذي كان يبدو جليا أنه يريد أن يجعله خليفة
له رغم أنه لم يكن في السن التي يمكنه من استيعاب أمور
الأهالي، يعودان إلى بيتهما قبيل الغذاء، ثم يعاودان الجلوس هناك
مساء، بعد نصف ساعة يخرج آكلي برفقة الولدان معا، هنا فقط
كان التغيير الوحيد من يوم لآخر، التغيير في المكان الذي

يقصدونه، فمرة تكون الغابة وجهتهم، ومرة القرى المجاورة التي
بها متاجر يشتريان الحلوى أو مشتريات المنزل، بهذا ينتهي
يومهم، يعود الثلاثة إلى بيتهم ولا يغادره آكلي حتى اليوم التالي
وبنفس الخطوات كان يضيف يوما جديدا لأيامه المتشابهة.
في نهاية اليوم الثالث، جلس ايثري يرتب ما جمعه من ملاحظات
في رأسه، ويفكر عله يجد منفذه ويكون آكلي بمفرده، فلم يجد
لذلك سبيلا، وعندما أقر العجز، لم يجد بدا من العودة إلى
تافسوت وذكائها، انتظر الصباح وقصد دارها، كما اتفقا تظاهر
أنه يريد أكلا، طلبت منه تينهان أن يجلس أمام الباب وطلبت من
ابنتها أن تكرم ضيفهما، أكل بشراهة، فلم يضع في فمه لقمة
مشبعة منذ جاء مع تافسوت إلى قريتها، كان طعامه مجرد فتافيت
أكل هنا وهناك، ثمرة من هذه الشجرة وتينة من شجرة أخرى.

ثم قام وشكر السيدتان على كرمهما بكل لطف، واستأذنها في
المغادرة، قامت تافسوت لتعلق الباب هامسة أنها ستلتحق به إلى
المقبرة بعد قليل، فارقها هو وسلك طريقه إلى مكان موعدهما
المتفق عليه، وجلس عند المدخل منتظرا.

بعد حوالي نصف ساعة استأذنت تافسوت أمها وخرجت للقاءه
وكلها أمل أنه لم يبق الكثير، لاح لها شعره الأجدع من مسافة
قريبة، سابقت خطاها إليه ثم جلست بقربه

-أظنك قد عرفت من مراقبتك لآكلي خلال هذه الأيام ما نحتاجه،
وذكاءك الذي اكتشفته لن يعجز في إيجاد خطة للنيل منه.

لكن تلك الطمأنينة والتفاؤل قد اختفت عندما نظرت إلى عينيه،
وزاد قلقها وخوفها بعد سماعها ما أنبأها به من صعوبة الانفراد
بالعجوز، قفز الذعر من عينيها وأطبق السكوت على شفيتها،
للحظات كانت دهرا بالنسبة إليها، ثم أمسكت يده متوسلة أن يجد

حلا آخر فقد عجزت عن ذلك، التوتر قد سلب عقلها، وهي تمنحه حرية التصرف، أطبق يده الثانية على يدها بكل عطف وهو مشغول البال يفكر في أمر ثم أخبرها أن له رأيا يريد أن تجربه دون رفض، حتى إن لم يعجبها، وإن فشل فسيفعل ما تأمره هي به، وإن كان قتل أكلي أمام الملاء، هزت رأسها موافقة بكل ثقة، أجل فقد منحت تافسوت كامل ثقته لهذا الشاب الغريب عنها وهي التي تفتشى الشك في حياتها كالوباء.

هذه المرة أنتقل التوتر إليه، سحب يديه وبدأ بفركهما، أدار لها ظهره حتى يشعر بقليل من الراحة نفسيا، شرع في الحديث بكلمات مبعثرة، يتكلم مرة ويسكت أخرى ثم يبدأ من جديد

- كما سبق وأخبرتكم فحفيدا أكلي لا يفارقانه... لازالا صغيرين..

يبدو انهما شديدا التعلق به... ما أريد أن أوصله إليك أن

الموضوع ليس سهلا والجد مكانه من مكان الأب، اليتيم في

الصغر قاسي أكثر منه في الكبر، أنت لا تعلمين كم تأذيت منه
لكنك تدريكين طبعا حجم حزن فقد الأب وتعلمين أكثر من الجميع
ألم الفقد بهذه الطريقة، بكل الطيبة التي تسكنك، لا أظن أن
تعذبيهما هكذا سيرحك.

دخلت كلماتها على كلماته كسيف قاطع، ووجنتها تشتعلان غضبا
-ذنبهما أن جدهما قاتل، هو سبب عذابهما وليس أنا، والموت
كأس لا بد ان يشرب منها الجميع، هكذا قال أبي.

التفت إليها واقترب منها محاولا أن يهدئها، ماسكا يداها اللتان
كانتا دافئتين بعد غليان الدم في عروقها من الغيظ، ثم ضغط
عليهما وهو يركز عينيه في مغارتيها العسليتين، كان يريد أن
تقرأ منهما أنه معها ولن يتركها، ثم فتح الطريق لكلماته المنطوقة
بدل تلك المحسوسة

- اقترح يا عسلىة العىنن أن تكلمى روى أبىك و تخبره أنك
تراجعت عن الانتقام، اطلبى عفه عن عرك، ولا أظنه
سىرفض، بعدما روىته لى عنه لابد أن روىه قد احتفظت بطببته
وحتى أنه لن ىرض لك أن تكونى مرآة تعكس سوء آكلى،
وأكدى أن لهذا الكون ربًا ىحسن التذببر، عادل جدا لن ىضىع
لك حقا ولا حتى حق أبىك، أ تذكرن لقد وعدتنى أن تفعلى ما
أطلبه، دعنا نجرى هذه الطرىقة وإن لم تنجح أعدك بشرفى أنى
سأقتله أمام ناظرى الجمىع وناظرىك غىر مبالى بشىء.

سكت لكن عىنبه كانت تتوسل إلبها أن توافق، أما هى فبقت
تأمله مفكرة بكلامه، فقد قدم هذا الجامد لها درسا لم تتوقعه، ففاقد
الشىء قد يعطيه بسخاء كبىر، حرم الحنان والإحساس لكنه أبى
أن ىكون سببا لىفقده غىره.

وافقت تافسوت وهي ترى في إيثري بطلا من نوع آخر، قامت
بتناقل تجر أذيال التوثر والحيرة وربما الشك لكنها كابدت كل
ذلك ودخلت المقبرة، لحقها إيثري وهو يسألها إن كانت تيزيري
موجودة هناك؟ وأين مكان جلوسها؟ أراد أن يقول أسرار قلبه،
تزامت في حنجرته وحنفته، نظرت إليه نظرة فارغة ثم أشارت
إلى شجرة زيتون كبيرة.

جلس إيثري تحت تلك الشجرة هو أيضا، وإحساسه بالقشعريرة
التي انتابته يخبره أن تيزيري فعلا هناك وتسمعه، بدأ يحكي كل
ما يخالج قلبه، أخبرها أنه أحب تافسوت وتعود عليها كثيرا، تعود
التغيير الذي حملته إلى حياته، كيف لا يحبها وهي الوحيدة التي
أعادت له شعوره بوجود قلبه بعد أن عاش سنين طويلة وهو
أزرو ذو القلب الحجر، غير أنه أكد كثيرا عليها ألا تخبرها بذلك
حتى لا تكون مجبرة على تحمله، بدافع الإحراج أو الامتنان،
صحيح أنه فتح أبواب قلبه لكنه لم يتخل أبدا عن كبريائه العظيم،

ذاك الوحيد الذي جعله يتحمل كل شيء بابتسامته الساخرة، لن يعجز هذا الكبرياء في جعله يصبر على حبه الذي لا يرى له نهاية جميلة تليق به.

غير بعيد عن جلسة الاعتراف تلك، تافسوت جالسة القرفصاء والحيرة تعلوها، لم يكن الارتياح باد على وجهها، مرت ساعات وهي لم تبرح مكانها، الشيء الوحيد الذي كان يختلف هو في أي جانب تتأمل، ثم انتبهت فجأة للشجرة بعد أن تذكرت إيثري لكنها لم تجده، جالت ببصرها في كل أرجاء المقبرة، لكنها وجدت رسالة مكانه تركها عند شجرة الزيتون ورحل... فتحتها بلهفة كبيرة كانت تود ان تعرف أين يمكن أن تجده

"عسلية العينين يا عروس هذه المقبرة، أولا آسف على خطي السيئ الذي أتمنى أن تفهميه فأنا لم أتعلم مثلك، هي مجرد حروف اصطدتها من نافذة الكتاب، أما وقد بلغت مرادك

وكلمتي والدك فلم يعد لوجودي داع انتظرتك كي أوعدك لكن
يبدوا أن حديثكما كان شيقا فطال.

أخيرا أتمنى لك التوفيق وآسف فقد أخذت القلم والورقة من
حقيبتك...”

إيثري

ألقت بالرسالة، وانطلقت تركض في كل الاتجاهات علها تجده
لكن بدون فائدة، تلوم نفسها أنها لم تستطع أن تقرأ فكرة كهذه في
عيونه.

عادت تافسوت إلى البيت وبداخلها قوتان تتصارعان، إحداهما
الفرح براحتها النفسية أخيرا والأخرى حزن على فقد ذلك
الإنسان الصديق، حتى أنها لم تتمكن من شكره، هذا كل ما كان
يشغل بالها وقتها. لكنها تدرك أنه أصلا كان ينوي الابتعاد فكان
أملها في إيجاد ضئلا.

مرت الأيام، ورجعت تافسوت لعاداتها، تنتظر وقت الظهيرة
لتحمل كتابا وتضع وشاحها الأبيض، تقصد المقبرة، تجلس هناك
تارة تقرأ صفحة وتتيه في الفضاء تارة أخرى، شاركها أمّاي
جلساتها بادئ الأمر لكنه رحل بعد أن أحس منها استغناءها عنه،
ومع كل يوم يمر، كانت تفكر في ذاك الفتى الذي أعاد تافسوت
لنفسها واختفى، تنقب في عقلها وذاكرتها علّها تتذكر أنه قال شيئا
قبل أن يرحل، لمح لوجهة ما أو أنّها قرأت له فكرة فارة في
عينيه لكن دون جدوى، تبحث في القرى المجاورة عليها تصادفه
في أي متجر أو حقل، حتى أنها قصدت متجر غيلاس الذي أنكر
معرفته به من الأساس ونصحها ألا تبحث عنه فقد يكون شخصا
سيئا وهي فتاة شابة جميلة لا تملك خبرة في التعامل مع البشر،
لكنه في الحقيقة هو من كان لا يعرف من يكلم ولا يدرك شيئا عن
العيون وما تقوله، فقد قرأت كذبه بكل شفافية.

مر حلم تافسوت أمام عينيها، ها قد تحقق
بتفاصيله، اقتلع إيثري سواد قلبها وأعاد لها صفاء نفسها،
وتصالحت مع روحها، وقد فارقتها إلى حيث لا تعلم، كأنه ارتقى
إلى تلك النجوم الكثيرة البعيدة المتألئة في سماء قلبها.

الفصل الثالث

بعض الحوادث تحتاج تفاصيلاً ومجهداً كبيراً حتى تكون أوضح

تمر السنين كالإبر تغز بالقلب، وبكل ابرة، خيطٌ يجر ألف قصة
تُروى، ينتظر القلب سنة وحيدة تمسح عنه الألم ولا يجد إلا أياما
وشهورا تركض به إلى ابرة جديدة، ويوم تنتهي الإبر يكون
عمره قد انتهى...

ظل ايثري يبحث عن راحته من مكان إلى آخر، انتقل من
بوفنزار إلى الكانتिला أو بلدية جعافرة، ثم مجانية، تركها بعدها إلى
الياشير، بقي في كل منها يومين أو ثلاثة لكنه لم يجد نفسه، ابتعد
أكثر ووصل البويرة ومن ثم أكمل طريقه إلى الجزائر العاصمة،
كانت بالنسبة له عالما واسعا لا يشبه قريته في شيء، البنات
العالية، قاعات السينما، الدكاكين، حتى لباس سكانها كان مختلفا،
الحايك الأبيض الذي يلف أجساد النساء وحتى وجوههن أيضا في
بعض المرات، يتركن عينا واحدة فقط.

سمع بأبوابها الخمسة فقرر أن يمر بهم بابا بابا، بدء بباب الواد، باب الذيرة، باب البحر، باب عزون، باب الجديد، باب سيدي رمضان، باب السبوعة، إنها سبعة أبواب كانت تحمي هذه المدينة، وهو السبب الذي جعل اسمها المحروسة، مر بالقصبة حيث المنازل بطابقين تحتضن الفناء، بطابعها العمراني المميز المازج بين التراث العثماني والثقافة الأندلسية بأعمدتها الشامخة، يتوسط الفناء بئر عادة، كان المنظر بالنسبة إليه قمة في الروعة والإبداع والتقدم، يفوح من أزقتها عطر الورد والياسمين وماء الزهر، أسرته المدينة بعبقها، لكنه لم يستطع المكوث بها كثيرا، ولا بالعاصمة برمتها، كانت في نظره أشبه بمهرجان يومي للفرجة وفتح فمه مندهشا من كل شيء ولكن ليس للعيش، صعب عليه تعلم العربية والتخلي عن أمازيغيته التي لم تكن مفهومة بالقدر المطلوب لدى سكان الجزائر العاصمة، تدرب أن يقول

أحتاج عملا، أريد خبزاً، من أين الطريق؟ لكن ظل وحيدا، ظل
مشرداً، وظل قلبه معلقاً بمكان آخر أقسم ألا يعود إليه.

بعد العاصمة عاد أدراجه لكن ليس كليتنا بل إلى بجاية أو بجایت
كما يسميها القبائل، كانت هي بقراها كأخت توأم لقريته، نفس
نمط العيش، نفس اللهجة، نفس الشقاء ولكن مع أناس آخرين كانوا
له شيئاً من الرحمة والحب، على الأقل لم يكن يبدو مختلفاً غريباً،
لم ينظروا له على أنه المشرد الوقح عبد غيلاس، استقر هناك
بايغيل علي، لم تكن بعيدة كثيراً عن قريته الأصلية إلماين.

وجد عملاً بأرض العم محمد، عجوز قد لعب الشيب برأسه وأخذ
المرض شحوم جسمه، وأحاط جمال قلبه وجهه نورا، رسمت
السنون شقوقاً تحكي قصصاً وتعباً أكبر من عدد تلك السنين،
عجوز وحيد يعيش بمفرده بعد أن ماتت رفيقة الدرب والشقاء قبل
لقاءه بايثيري بسنيتين، حملت له الأيام منها ولداً وحيداً هاجر بعيداً

إلى فرنسا حيث لا يعرف أحد مكانه، حتى جنازة أمه لم يحضر إليها، خصص بيته بعدها لعبري السبيل، عله ينال أنسا بآخر حياته.

ظل ايثري معه لثلاثة أيام يخدمه ويرعاه، كأن محمد هو ضيفه لا العكس، فقد تعلم من عيشته السابقة كيف يقوم بكل شيء حتى الطبخ، فقط قليل من الأغروم (الكسرة) مع زيت الزيتون يفي بالغرض، غسل ثيابه، رعى غنمه وسقى له الماء إلى البيت، كان يكتفي بأن يشعر بحنانه حتى يحط الرضا رحاله على قلبه، فقد كان طول حياته يعمل ويشقى ولا يلقى إلا الألم، يختمان يومهما بجلسة يتكلم فيها عمي محمد ويحكي له عن أيامه الخوالي، ولا ينطق ايثري فيها بحرف، حتى يسبح في عالم النوم كطفل صغير يولد لأول مرة....

-عليّ الذهاب، حق الضيف ثلاثة أيام وقد انقضت، شكرا لك يا
عمي على كل شيء.ء.

-أنت مذ أتيت لم تتكلم، ونحن لا نسأل الضيف، لكن الآن عليّ
أن أسنفسر، هل لك وجهة تقصدها؟

-لا، أجوب فقط أرض الله حتى يقرر الله ان يضمني إلا أرضه،
فسطحها لم أخلق له ولا هو تقبلني.

-يا ولدي (وأمسك يد ايثري بحنان لم تسؤه التجاعيد) أنا كما ترى
وحيد، لا رفيقة ولا ولد، استجدي العابر ليقضي معي ليلة علي
أقضي نحبي بها فأدفن قبل أن أتعفن ولا يعرف عني أحد شيئا،
وانت كما تقول لا وجهة لك، فليكن بيتي بيتك حتى يحدث الله
بعد هذا أمرا.

أرعى الشاب المشتاق للحنان شوقه للصبيبة التي غرست فيه
المشاعر يده على يد العجوز وقد أحس بحاجتهما لبعضهما.

-سيطول العمر عمي محمد لا تستعجل الموت، سأظل خادمك...

وقبل أن يتم جملمته قاطعه بعد ان سحب كفه من يديه ووضعها

على كتفه

-سنبقى ولدي وأنسى وحسنة عابرة جازاني الله بها في كبري.

عانقه ايثري ونزل بطوله الفارع على جسم قد أكل الدهر من
حجمه، لكنه ترك له أسنانا تستطيع أن تضيء وجهه وهو يبتسم.

أصبح لهذا الفتى بيت وأب وإن لم يكن أبا بيولوجيا، أصبح له

شخص يهتم لأمره، شخص يشاركه تفاصيله دون أن يكون

تطفلا، أصبحت له حياة طبيعية ككل هؤلاء البشر، نزع لباس

المتشرد ليلبس ثوب الولد المطيع، الدور الذي لم يعشه يوما في

وقته الطبيعي ولكن ما دام الانسان يتنفس وعلى مقدره نفسية

وجسدية فكل شيء ممكن.

الاستقرار يفتح الباب للأفكار بكل أنواعها، السوداء منها،
الحالمة، الوردية والمستحيلة حتى أن تزور عقولنا، على عكس
الانشغال تماما الذي ينسينا كيف نسبح بخيالنا هناك في بحر
الخواطر.

أصبح الليل يحمل له مع أفكاره الكثيرة، روح أمه، يجلس ساعات
يكلمها محاولا الشعور بها معه، لم يكن متأكدا من ذلك لكنه بعد
كلام تافسوت عنها متيقن أنها لم تتركه، تافسوت أيضا كانت
تشغل باله كثيرا، ما إن تراه مبتسما كالأبله حتى تجزم أنه يفكر
بها، بشعرها النحاسي المختبئ تحت شالها الأبيض، شالها الذي
لطالما انفلت إلى كتفها بسبب نعومة خصلاتها، يأخذ الحنين إلا
مغارتها العسليتين وباقي تفاصيلها التي كان يراها خرافية، وما
إن تكتمل صورتها في مخيلته حتى تفر به الذاكرة إلى أيام جميلة
جمعت بها، في كثير من الأحيان كان يغلبه الحلم فيضنه حقيقة،
يعترف لها أنه أحبها بالقدر الذي زرع الله حبا في هذه المعمورة،

يخبرها أنه لم يحب يوماً فلما أحبها انفجر قلبه عشقا، كحجرة تسد
نهرا عملاقا وانزاحت، يصف لها حنينه لصوتها ويستجديها أن
تتكلم، يقترب منها ليقبل يدها، فتتبخر في الهواء.

الحب لا نتعلمه، وليس ثقافة نرثها عن أسلافنا، الحب مولود معنا
ينتظر فقط أن تزيح الأيام الصخرة عن النهر، ينتظر نظرة
خاطفة دون سابق انذار، أو بسملة ساحرة من ثغر لا يشبه إلا
كنزا لؤلؤيا، أن تجد قلبا يحتويك، روحا تضمك وصدرا تنام عليه
وتبكي كطفل ناسيا الكرامة والكبرياء والبريستيج، كتفا يسندنا
ويشد عضدك، هكذا هو الحب تكامل بين روحين قبل أن يكون
بين جسدين، كذلك ايثري غمره الحب كله وأغرقه لكنه أبعد ما
يكون عن محبوبته، ولا يملك حتى الشجاعة أن يعود إليها ويبللها
بماء الظهر والحب.

مرت خمس سنوات، تشابهت الأيام بصبحها ومساءها لدى ذلك الفتى الذي أصبح أقرب إلى الطيبة والمحبة منه إلى العند واللؤم، تعود عليه سكان قريته الجديدة واحبهم بدوره، أصبح خدوما لكل من يحتاج، فالإنسان ابن بيئته، إن وجد طيبا نثره، ولكن إن كانت بذرته طيبة بالأساس، اتضح أن قساوة العالم كلها لم تطمس قلب تيزيري الذي أورثته ابنها.

يسرق من وقت الظهيرة ليجلس وحيدا بعيدا عن الجميع، لينفرد بأرواحه التي تملأ عليه دنياه سعادة.

تمثلت له كعادتها بثوبها القبائلي، وفوطتها المزركشة بالألوان مربوطة على خصرها، وشاحها الأبيض الذي يميزها عن نساء القبائل، فهن يعشقن الألوان ولا يتفرد وشاح لهن بلون واحد، كان سرابها واضحا جدا جميلا أيضا ومغريا، هم أن يقوم له تبجيلا،

حبا واشتياقا، لكنه خاف أن يتبخر كالعادة، فظل محدقا إليها
بابتسامته البلهاء لا يتحرك خوفا ان تتلاشى كما تختفي حبات
الرمل من بين الأيدي إذا استمرت في الحركة.

-لما ابتعدت كل هذه المسافة؟ لولا نظرتك وابتسامتك لقلت أنك
تمقتني.

-يا إلهي لقد زادت حالتي سوء، أصبحت أراها تتكلم، عليّ ألا
أفكر فيها مجددا، أصبحت شبعا يطاردني، سأجن آخر الأمر.
تسللت منها ضحكة غصبا عنها، كان كالمجنون، يغلق أذانه ثم
يعود ليفرك عينيه، لم يكن سهلا أن يصدق أنها فعلا وصلت إليه.
-هل أنت فعلا هنا؟

قرصت ذراعه بلؤم وواصلت ضحكها، كاد ان يعانقها من الفرح
ثم تمالك نفسه بصعوبة بالغة، لكنها لم تفعل ذلك وارتمت عليه

تعانق الروح بداخله، كانت كمن فقد نفسه في مكان ما ثم وجدها،
لنتخطى بذلك حدود الفرح، حدود الشوق وباب الأعراف وما
تحلله لها، كانت تبتعد عنه للحظات وهي ممسكة بذراعيه تتأمله
جيدا، كأنها لم تصدق بعد أنها وجدته أخيرا بعد كل هذا الوقت،
ثم تعود لضمه من جديد، أما هو فكان كدمية بين يديها، غاب
وعيه من دهشته، احتاج الموضوع لوقت طويل حتى يعرف
الهدوء الطريق إلى نفسيهما، ويعود العقل ليحيط بحاله على
روحيهما، جلسا إلى شجرة زيتون تشبه تلك التي جمعتها بالقريّة
القديمة، يسند أحدهما كتفه على الآخر يرمي ثقل الأيام ويقاسمها
قلبا محبا قبل كتف ملاصق.

-لم تتغيري كثيرا، ازددت جمالا فقط.

-على عكسك فقد حلقت شعرك المنكوش وعلامات النضج

والهدوء قد عانقت وجهك.

-كيف وصلتني إلى هنا؟ أو دعيني أضمن، أهي أمي من وشت بي؟ مع أنني نبهتها مرارا ألا تفعل..

بكثير من التوتر قاطعت كلامه

-لا، ليست تيزيري من أخبرتني

-إذا كيف؟ أنا بعيد عنك بمسافة كبيرة وخمس سنوات من

الفراق، كيف تقفيت أثري ووصلت إلي؟

-لي قريب هنا، كوسيلة أكيدة أنك تعرفه، وقد ذكرك وهو يروي

جديد القرية لأمي، ولأن موضوعا مصيريا بقي عالقا بيننا،

ارتأيت أن أبحث عنك بين الحقول.

-أي موضوع؟ كنت أظننا تصافينا يومها.

-الموضوع يحتاج الكثير من الشرح والقصة لا بد أن تحكى من
البداية، حتى من قبل أن ألتقيك يومها أمام المتجر قبل ست
سنوات.

-أي قصة وأي شرح؟

-عدني فقط أنك لن تتركني مجددا كما فعل الجميع، كما تركني
أخي قبل أن عرفه، كما تركني أبي، جدي وامنائي وحتى أنت
سابقا، وسأعدك أنني لن أكذب عليك مجددا، لن أغف حقيقة بعد
اليوم...

ابتعد عنها وقد خالط روحه ريب وخوف، ريب أن كل ما عاشه
يمارجه الكذب على حد قولها، وخوف أن معرفته لذلك ستجعله
يفقدها من جديد، لو لم يكن الأمر بهذه الخطورة لما طلبت منه أن
يعدها أولا، بقي صامتا، لا يدري إن كان يريد أن يعرف أم أنها

أهم لديه من كل الحقائق؟ لم يدر بأي شط عليه أن يرسي سفينته،
كان صعبا أن يقف بينها وبين الحقيقة.

بعض القرارات تكون الحيرة فيها أصعب بكثير من اجتناء الخيار
الخاطئ، تلك القرارات التي قد يترتب عنها فقداننا لقطعة من
أرواحنا.

حسم أمره ووقف ينظر للأفق نائيا بنظراته عنها حتى لا تلمح
الفوضى بداخله، وبصوت رزين قال لها

-لا أريد أن أعرف شيئا، ا لست معي الآن؟ إذا هذا فقط ما
يهمني، ما مضى قد مضى وطوته الأيام.

ولكنني قررت أن أحكي لأرتاح وترتاح أيضا

عندما أجهضت أمي قال أبي أن للموت كأسا لا بد أن يشرب منه
الجميع، لكنني تجرعت منه حتى الثمالة، لأنه بعد ذلك أخذ أبي

وبعده بيوم جدي الحبيب، كنت صغيرة لأتحمل ذلك، كانت جنود
العقل قد أبيدت عن آخرها، وكلما كنت أكبر كانت تكبر معي
فكرة أن هذا الكون لا بد أن يسوده العدل وأن يزدرد الكل نفس
الكوب التي ارتويت منها، لا بد لقاتل أبي أن يقتل، كمية الحقد
تتكاثر داخلي، تتنافس مع دمي في سريانها داخل كل عضو من
جسدي.

عندما أصبح عقلي أكثر نضجا، بدأت أفكر أكثر كيف أنفذ
طموحي أن أراه مطعوناً، وفي الوقت نفسه كنت أعلم أنني لن
أستطيع فعلها وحدي، لن يصدق أحد طفلة تقتل شيخ قريتها لأنه
وهي صغيرة قتل والدها، سيقول الجميع أنه يشبهه، ليس هو وأن
الصدمة يومها أخذت عقلي، لن أجنبي غير الطرد والمعاملة
السيئة لي ولأمي من تلك القرية الظالم أهلها، بدأت أقرأ كتباً
كثيرة عن الجرائم أمام قبر أبي، كنت أخاف أن تفلت مني كلمة
وأنا تحت تأثير أحلامي بالثأر ويسمعني من يفضح أمري بغيبائه.

ثم تعرفت على أمّاي، كان هو مفتاح قصتي ومن وضع عقلي
في طريقه الصحيح، حتى دون قصد منه أو انتباه، أمّاي جال
أماكن كثيرة من الجزائر، أكاد اجزم أنه لفها شبرا شبرا، والأهم
أنه تعلم من كل منطقة سرا أو علما، وخاصة من أهل الصحراء
والطوارق فقد تجند منهم بعلم الفراسة، هل تعرف معنى الفراسة؟
هي كتعلمك لفك شيفرة الكنز، شيفرة طرق الصحراء، والأهم
قراءة وجوه البشر وتصرفاتهم، حاولت أنا أن أتعلّمها منه، ربما
في بادئ الأمر فقط لأقرأ وجه أكلي عندما أظهر أمامه، ثم بدأ
موضوع قراءة أفكار البشر والتكهن بما سيحدث لهم هواية أتسلى
بها، في الحقيقة لم أفلح أبدا في التنبؤ... ولكن كان عليّ أن أقنع
البشر أنني غير عادية، أتعلم لما؟ فقط ليصدقوا قولي أنه قاتل
أبي.

افتعلت بعدها قصة حريق بيت جارنا، كنت بنفسني من أشعلت
النيران في فناءه بعد أن تأكدت أنه خرج، نسيت أن زوجته كانت

لازلت هناك لكن قدرها أنقذها من كأس الموت، وقصة الطفل
الذي أخبرت أمه أنه يسكنه جنّي، فكنت من أطعمه عشبة تدعى
بونرجوف قرأت أنها إذا تجاوزت تركيزا معيناً تذهب العقل
لبعض الوقت ثم بعد أن عرفت متى يختفي مفعول العشبة،
تظاهرت أنني أقرأ عليه القرآن فشفي...

-لكنه مات بعدها هكذا قلت سابقاً-

نعم ربما تجاوزت التركيز المسموح به، أو أنها جرعته من
كوب المنية، حادثتين فقط كانتا كفيلتين أن تحملا نني من فتاة
عادية لا أحد يهتم لوجودها من عدمه إلى فتاة يطلب الجميع
رضاها، أما باقي التنبؤات فقد كان بعضها ضربة حظ، وبعضها
الأخر قراءة وجوه، أو قد أتججج أحيانا أنّ الأمر غمّ علي، لم
يكن أحد منهم يفكر ولو للحظة في تكذبي.

مع كل هذا لم أبلغ مرادي بعد، بدأت أبحث في كتب أبي عن طرق التنبؤ، طرق قراءة الغيب حتى لو اضطررت لتعلم السحر، لم أكن أريد ان أرى طالع البشر ولكن أن أعرف كيف ستحل قضيتي، حتى صادفت كتاب مقدمة ابن خلدون لا تعرفه أكيد، ان سامحتني سأحكي لك عنه لاحقا، في فصل الأصناف البشرية، لفتنتني عبارة

" ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوق إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب "

واصلت القراءة على أمل أن أجد كيف يرفع هذا الحجاب، فكانت الحالومة، هل تعرف ما هي الحالومة؟

"ذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه

الكلمات الأعجمية وهي "تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا
غداس" ويذكر حاجته فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في
النوم"

وقال أيضا "إنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس
لوقوع الرؤيا فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما
يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب ولا يكون
دليلاً على إيقاع المستمد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة
على الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم
الخبير"

أعلم أنك تستغرب كيف أحفظها، لكنني بقيت أتلوها على نفسي
كثيراً، الآن هي محفورة حرفاً حرفاً في ذاكرتي، جربتها بقلب
صادق، بقلب متلهف للحقيقة، فرأيتك، نعم رأيتك كما رويت لك
سابقاً كنت الحقيقة الوحيدة في كل ما حدث معي من أمور غريبة،

أقدر الصدمة العظيمة في عينيك، أتفهم لجام الصمت الذي التف على فمك، استمر في هذا السكون حتى أنني ما جئت لقوله أريد أن أرتاح، أريد أن أعود تلك الطفلة التي كانت قبل أن يظهر آكلي في حياتي.

هو لم يختار أن يبق صامتا لأنها طلبت، ولكنه كان مجبرا على ذلك، ماذا كان سيقول لها؟ أين اختفى ذلك الملاك لتظهر هذه الساحرة التي اتفقت مع الشيطان عليه؟ صراعه مع نفسه كان أكبر من أن ينفصل عنه لأجل صراعه معها.

خيبة انهيار من نحب في عيوننا لا تقارن بقبلة تدمر العالم برمته، لسنوات كاملة كان يفكر أنها الشيء الجميل الوحيد وسط الخراب العظيم الذي عاشه، لتأتي اليوم وتطلق رصاصة الرحمة وتؤكد الاخير في البشر، بقي يحاول الهروب من صراعه ليركز

في كلامها عله يستوعب كم كان غيبيا، كم كان ساذجا، وواصلت
هي كلامها.

ثم بحثت عنك بين سكان قريتي، بين أحاديث الرجال وقصص
المساء، في قصص النساء عند تالا، حتى وجدتك في يوم كان
عرسا لدي، راقبتك كثيرا قبل أن أتكلم معك لأول مرة، لم يكن
سهلا أن أطلب من شخص لا أعرفه أن يقتل لأجلي، وهنا جاء
دور أكبر كذبة عشتها معي والتي أنا الآن هنا لتغفرها لي بقلبك
الطيب، قلبك الذي غرست فيه الدنيا سوادا يبديد البشر جميعا لكن
خذلها وكان ألين من زبدة وسط النار، أطمع في كرمه مجددا، أنا
لا أرى أرواحا ولا أكلم أشباحا، وكل ما أخبرتك به أن تيزيري
أخبرتني به كان يوغرطة من فعل، كنت محقا يوم المقبرة، لقد
كان يلحقك دائما دون أن تلمحه وبما انني أيضا كنت أتبعك فقد
لاحظته وأقنعتة بطريقتي أنني سأعيدك إليه إن ساعدني وأخبرني
كل شيء عنك، ولأن الغريق يتعلق بقشة، تعلق بي وهو لا يعلم

أنه قشتي، وعرفت تعلقك بقصة والدتك لأنها في نظرك الوحيدة
التي أحببتك، واخترت قصة تكليم الأشباح وروح تيزيري، إنها
الغلطة الوحيدة...

لم تكلم جملته حتى سحب يده بعنف، قام وقد طاش حجر رأسه،
أخذ يركل الشجر، يثير تراب الأرض وصراخه قد ملأ الأرجاء،
تكمشت تافسوت في مكانها، توقعت أنه سيضربها ويفرغ جام
غضبه عليها، لكن بعد أن صرخ صرخة هائلة ارتجت أوصالها
لها، صرخة اختلط بها صوت البكاء، انسحب من المكان تاركا
إياها دون أن تسمع أي حرف منه...

كأن الحياة تختار شخصا واحدا وتنهال عليه بالكلمات، وهي تقول
بملاً صداها هل ما زلت تستطيع الاحتمال؟ هل تتحداني؟ وما ان
يرفع رأسه سيسمع ضحكتها تغمر الأرجاء، يضحك قلبه معها
بالمقابل، سيظن أنها فرجت، لكنها ضحكت لأنها ستقصفه مجدداً،
لأنها وجدت من تضربه وتتسلى به.

ليلة ثقيلة حطت رحالها عليه، منذ ان دخل بيت عمي محمد لم
يفتح فمه بحرف، الصدمة العظيمة عندما تزور بشريا تصيره إما
مجنونا أو حجرا، فقط يفكر، تخيل نفسه لو أنه طاوها وقتل
أكلي، ثم يكتشف أن كل شيء كان من خيال طفلة، ايثري بكل
ذكائه وفطنته، بكل خشونته وقوته أصبح مجرد لعبة استعملتها
بكل كذب الكون من أحبها بصدق، لم يشعر إلا ويد عمي محمد
تربض على كتفه.

-ما بال الهم قد احتل وجهك؟

لم يجد بما يجيبه، هل يحكي له عن تفاهة أقداره، عن حياة لم تترك له شيئاً جميلاً إلا شوهته، أثر الصمت على نظرة الشفقة، لكن عيونه وصمته قد خانته وقالت كل شيء، جذبته إلى حضنه وطوقه بذراعيه كطفل صغير.

-ابك يا ولدي ابك، اغسل هم قلبك بالدموع، لا تدع الدنيا تتغلب على ظهرك وتلوثه.

سمح لشلال عبراته أن ينفجر، أزال ذلك الحاجز الموجود بينهما وحكى له قصته، كانت أول مرة يعرف فيها هذا العجوز الوحيد منبع هذا الفتى، عرف أن حزنه وسنين عمره الطويلة لم تكن شيئاً أمام سنوات ايثري التي كانت تباري العصور أيهما أطول.

-يا ولدي أنت لابد أن تنسى ما حدث، ان تبدأ من جديد، لا غيلاس موجود الآن ولا تانيلا تستطيع أن تضربك، والدتك ماتت

لا تملك لها سوى الدعاء، ووالدك يستحق بعض الرحمة بأن
تغفر له ليرتاح قلبك، كان شابا طائشا ليس الجميع بحكمتك.

- وتافسوت؟ هل أقتلها مثلا؟ هل أدمرها كما فعلت بقلبي.

- هي أيضا لها أسبابها يا ولدي، كدت ان تقتل أباك لأنه تخلى
عن أمك، فكيف بها طفلة صغيرة ترمق قاتل والدها امامها كل
يوم، ليس سهلا أن تعيش مع حادثة مؤلمة كتلك.

- فجعلت بالمقابل حياتي أكثر ألما وهي أدرى الناس بما أعانيه،
بقيت خمس سنوات أحلم أنني سألتقيك، انها ستقبل بي زوجا
وننجب طفلة بسماحة وجهها والتقينا، لكنها قررت أن تكون بلا
قناع، هي ربما لا تكلم الموتى، لكنها جعلتني ميتا، باتفاقها مع
الشيطان.

- عليك أن تجد طريقة لتغفر لها، ليس من أجلها، بل من أجلك
حتى تكمل سنواتك القادمة ايثري الذي عرفته خلال الخمس

سنوات الماضية، ايثري الذي يساعد المحتاج، ويلعب الطفل،
ويبتسم في وجه الجميع، إن بقي الغل بقلبك فلن يحدث كل هذا،
ستعود أزرو.

كان ايثري وقتها قد غط في النوم، والدموع بدورها رسمت
طريقها على خدوده، عدل عمي محمد جسم الفتى الضخم وقام
إلى مكانه وقد فارق الكرى عينيه بعدما سمعه، لاحت ابتسامة
خفيفة على شفثيه وهو يقول لنفسه

-وما زلنا نستغرب كيف خرج آدم من الجنة، قضاء الله
واقع واتفاق النساء مع الشياطين فرض، سبحان من
جعل كيدهن عظيم.

قد ندرك أننا على خطأ، ونعلم عمق الغلطة وأبعادها تماما ومنذ
البداية أيضا، قد نقدم على ما ليس سويا بكامل إرادتنا، لكن
بمجرد أن نرى ألم من نحب تتغير الأبعاد، يئن فجأة فينا الضمير
وصوت الحق، تجلدنا الندامة بسياط لو، لو التي لن تعيد الزمن

ولن تسمح أخطاءنا وتنتظفها، لو العاجزة أن تمحي ما حدث من عقول من نحب، لكنها بارعة في ذبحنا.

وقتها أمام الشجرة هناك، أرادت تافسوت أن تقاوم خوفها وتقوم بضمه إليها عله يهدأ، لكن كيف بمن يغرز السكين أن يطهر الجرح ويعالجه؟ كانت شبه متأكدة أنها لو اقتربت منه وقتها لكان هيجانه أصبح أضعافا ولربما صبه عليها، بقيت تضم جذعها الأعلى إلى ركبتيها حتى رحل، وقتها أطلقت العنان للبكاء أن يحل بعينيها، وسكبت عبرات حارة، عرفت وتأكدت أنها خسرت إلى الأبد، راودها الشك أن لو ظلت صامتة لكان أحسن، لاستمر الحب يفيض من عينيه، ولربما كان سيكون زوجها وسكنها، عظمت هذه الفكرة الحزن بقلبها وأشعلت نارا لن تنطفئ، لكن من جهة أخرى، قلبها قد نال راحته أخيرا ورمت بالحمل الكبير الذي كان جائئا على صدرها وطهرت من الآثام سريرتها.

جمعت الشمس أشعتها وأوشكت على الغروب، وبدورها قامت تافسوت لتعود إلى تينهان التي كانت تنتظرها ببيت كوسيلة قريهم هنا بقرية إيغيل علي، تينهان التي كانت خجلة أمام أهلها بتصرف ابنتها الذي لا ينم عن فتاة عاقل حسنة التصرف، كيف لها أن تخرج من البيت بمفردها في قرية غريبة وتغيب الشمس

وهي لم تعد بعد؟ تحس بالضيق كلما رمقتها قريبتها، شعرت بخيبة الأمل تكبر وتتكشف لغيرها. وقطع دخول تافسوت حرب النظرات، سحبها تينهانان على جنب ثم قالت

-أين كنت حتى الآن؟

-كنت...كنت أزور أحدهم

-ومن تعرفين هنا حتى تزوريه هاه، خالك حسيئة ظلت تسأل طول اليوم وأنا كالحمقاء التي تستغفلها ابنتها في كل مرة، اسمعيني جيدا، مشاكلك في جعافرة لا أريدها هنا.

وانهارت على الأرض وقد غلبها البكاء، جلست تافسوت بقربها وقد ضمتها إلى صدرها، هي تحس بما سببته من ألم لأمها.

-انتهى كل شيء يا أمي لن أسباب المشاكل بعد اليوم، وسأكون تلك الفتاة المأدبة التي لطالما حلمت أن أكونها، وربما كلها أيام وسنغادر هذا البيت إلى حيث لن يعرفنا أحد ونبدأ حياتنا من جديد بهدوء، ما كان عالقا قد انفلت وعانق الأرض ووري التراب وأصبح ماضيا.

-عن ماذا تتحدثين؟

-ليس مهما، كوني بخير فقط، لا أريد لهذه الدموع أن تنزل
مجددا اتفقنا؟

جلستا للعشاء برفقة كوسيلة وحسينة وعينا هذه الأخيرة تكاد
تغادر محاجرهما وهي تراقب تافسوت تريد أن تسألها أين غابت
طول اليوم؟ لماذا قدمنا إلى هنا وتركنا قريرتهما؟ والسؤال الأهم
كم ستبقين هنا، فالعائلات القبائلية عادة ليست ميسورة الحال
لكنها كريمة إذا كانت المرأة تحب ضيفها وإلا فسيحس باللقمة
شوكا عالقا بحلقه فقط بنظراتها.

أفاق إيثري مع خطوات الفجر الأولى نحو القرية، وضع ركوة القهوة على الكانون، بلا حليب فليس وقت حلب الماعز، جلس يفكر فيما حدث البارحة ويدير كلام عمي محمد في رأسه، فكر أنه عليه أن ينتقم منها، لا بد أن لا ينجو كل من أسأؤوا إليه بهذه البساطة، ليس غيبيا ولا تافها حتى يدوسه الجميع، حتى من سكن حبها قلبه وتغلغل فيه، طرقت هذه الفكرة الأخيرة برأسه، يحبها؟ سأل نفسه مجددا، هل فعلا مازال حبها متربعا على قلبه بعد كل ما سمعه وعرفه، أغمض عينيه وتخيل وجهها، عيونها، بسمتها وهي تمد يدها إليه، ابتسم ابتسامة الحب البلهاء تلك وقد عرف جاوب سؤاله.

قد نغضب ممن نحب ونبتعد عنهم، لكننا لا نتوقف عن حبهم بهذه السهولة، لا بد أن تنفصل روحهم عنا، وذلك كفصل الماء عن الزيت يحتاج وقتا ليهدأ كل شيء، وحتى بعد الفصل يبقى شيء من أحدهما بالآخر.

شرب قهوته بكل هدوء لم يشأ ان يوقظ عمي محمد، ربما كان يشعر بالنفور من محاضرة أخرى، لبس برنسه فالبرد قد حط

رحاله على القرية وما هي إلا أيام حتى تصبح بيضاء تسر الناظرين، خرج بعدها ليكمل خلوته في مكان ما غير البيت، فتح الباب الخارجي فوجدها أمامه واقفة، أبعدها بيده دون النظر إلى وجهها، عرف أنها لن تتركه في حاله حتى يتخذ القرار وحده، مشى خطوات مبتعدا عنها فأحس بخطواتها تتبعه.

-سأغادر القرية اليوم عائدة إلى بوفنزار.

سكتت تنتظر أي ردة فعل منه، ربما توقعت أن حبه لها أكبر من غضبه منها، لكنه أكمل طريقه كان لا أحد كلمه، يتخبط مع ذاته فقط.

-أريدك أن تطلب ما تشاء حتى تسامحني، أنت الوحيد الذي أتعني ضميري بشأنه، فأنا أحبك.

كان وقع الكلمة الأخيرة وازنا، "الآن تذكرتي أن تقوليها، بعد أن لم أعد أستطيع النظر إليك"، هذا ما كان يدور برأسه، ناسيا ما قالته قبل ذلك، فبعض الكلمات أو الإجابات تأتي عندما نفقد حاجتنا إليها.

-هل سمعتي عن المستحيل يوماً؟ إن كان لا فهذا الذي تطلبينه هو المستحيل بعينه.

-لكن بالمقابل أعرف كم ان قلبك كبير.

-لن أستطيع الكلام هنا فبعد قليل سيخرج الرجال لصلاة الفجر وسيكون مهينا لقريبك ما فعلينه بشرفه، مهينا لي وانا ضيفهم أن أفقد ثقتهم.

-وأنا أ لا أهمك؟

واصل مشيه دون أن يجيب عن سؤالها الأخير، وواصلت هي تتبعه وبارقة أمل أنه سيغفر لها قد لاحت في الأفق، وإلا فلما وافق أن يسمعها؟ بينما كان يفكر هو فيما عليه قوله وفعله الآن، كيف يخرج من هذه المعركة منتصرا بعد أن خسر كل حروب حياته، هل رفض مسامحتها فقط سيكون كافيا؟ ام عليه أن يجد طريقة أخرى لينتقم منها، وما الذي قد تكونه هذه الطريقة، لم يعهد نفسه يكيد لغيره، كان دائما صريحا يصب غضبه على من كان السبب ويرتاح، لكن الامر الآن مختلف والجرح أكثر عمقا والغضب بركان، وكل الكلام الذي يعرفه البشر لن يخفف شيئا من ألم روحه وتمزقها.

وصلا وكل تائه غارق في بحره إلى حيث عين الماء، لا أحد في الشتاء سيذهب باكرا هكذا لمأ الجرار وحتى صوت خرير المياه لن يجعل أحدا ينتبه لما سيقولانه.

-قلت أنك تعرفين كم ان قلبي كبير، وهل هذا هو مبررك لجعله يطعن؟ هل يستحق هذا القلب أن تدفنيه في أرض الأحزان، ما الذي فعلته أنا لك لتستخدميني هكذا، لتطفني الجانب الذي أشرق من حياتي، لم تجدي حيلة أقل خبثا من أن تستعملي روح أمي؟ أشعر برغبة جامحة في خنقك وجعلك فعلا هناك في صف امي.

-أ لهذا الحد كرهتني؟

-كرهتك؟ الكلمة الأصح أني أشمنز منك، أشعر بالقرف أنني أكلم فتاة بهذه العقل الشيطانية والروح السافلة الأنانية، تعتقد ان ألمها فقط ما يهم وأما باقي البشر فهم دمي، هل فعلا توقعتي أني سأسامحك؟

قال ذلك وركز عينيه بعينها أرادها ان تقرأ صدق ما يقول، أن تتأكد أنها قد قتلت ذلك القلب الطيب، انها تجني ما زرعته، رغم كل ما عايشه قبلها لم يصبح بلا قلب لأن من ألموه سابقا لم يكون

يتربعون على عرش قلبه مثلها. طعنة المقربين أكثر وجعا لأنها تأتي من مسافة قريبة.

-ستفعلين ما أريده لأغفر؟

-أجل

-إذا عليك أن تتزوجيني.

-إن كنت لا تطيقتي كيف تتزوجني؟

-حتى يصبح من حقي تعذيبك كما أشاء، فأنت ملكي وقتها لا أحد سيكون له حق التدخل، قد تخمد هذه النار يوما وأسامحك، (ضحك ضحكة شريرة كأنه يؤكد انه لن يحدث)، هاه ما زلت مصرة أنك ستفعلين ما أريد؟

أرادها أن ترفض، أن تقتنع أنه لن يعفو عنها مهما فعلت وترحل وتتركه لحاله يكمل حياته بشكل رتيب كما كانت قبل أن تنزلها كما تفعل كل مرة به.

-قبلت

في فناء منزل كوسيلة، جلست تينهنان معه بعد أن أخبرها أنه يحتاجها في موضوع ضروري، بطريقة أو بأخرى عرفت أنه يخص تافسوت، دعت الله كثيرا ألا تكون قد ارتكبت خطيئة تسود وجهها أمام أقاربها هنا أيضا.

-لقد كلمني الحاج محمد اليوم، لا أعلم إن كنت تذكرينه، يريد ابنتك لعامله ايثري.

-طبعا أذكره زوج خالتي باية، لكنني أعرف عامله هذا؟ كيف اطمئن على ابنتي هنا وارحل ومع شخص لا أعرفه حتى، وماذا سأقول لعمومتها؟

-ان شئت رأيي فيما أن محمد قد تقدم بنفسه وكفله فاطمئي، كما انني أعرف ايثري منذ قدم إلى هنا قبل سنوات، لم نشهد منه إلا كل طيب، وابنتك أصبحت كبيرة إنها فرصتها لتكون لها عائلتها الخاصة وتستر تحت ظل زوج.

لان رأس تينهنان وطلبت أن يترك لها وقتا لتشاور ابنتها فهي المعنية الأولى والأخيرة...

تقدم محمد رسميا لخطبتها بعد ان أخبره كوسيلة أنهما موافقتان،
الفرحة لم تكن تلوح على وجه تافسوت فهي تعلم أن هذا الزواج
هو شبيه بالانتحار تماما، بعد القران يستطيع ضربها وتعذيبها كما
يشاء، فواجب المرأة الأول هنا أن تطيع زوجها ولا تشتكي،
والاهم ألا تعود مطلقة إلى بيت أهلها، لو اشتكت لن تجد إلا
جوابا واحدا، إنه زوجك، فماذا تفعل الدجاجة إن كان القاضي
دجاجة، شيء من ضميرها كان يخبرها أنه الحل الوحيد حتى
ترتاح أخيرا من حمل ذنبه وأنه مهما فعل بها فإنها تستحق ذلك
بعد ما فعلته به.

اتفقت العائلتان أن يتم الزواج بعد أن يتم ايثري بناء غرفة إضافية
بقرب بيت العم محمد، وفي هذه الفترة تعود المرأتان إلى يوفنزار
لتخبر أعمامها ويحددوا موعد الزفاف وتستنشيرهم ولو شكليا
وحتى تخرج العروس من قربتها كما يجب.

مرت الأيام سريعة على ايثري الذي عمل بجد ليجهز بيته، كان
دائما مشغول البال بالفقار من أيامه، لم يستطع أن يتراجع الآن
عن قراره بالزواج منها، كما انه لم يعد مقتنعا أنه فعلا يريد ذلك،
وما إن تستقر فكرة أنه الآن أمام الأمر الواقع وأنها بعد أيام
ستصبح عروسته، تسرقه الأفكار في الطرق التي سينتهجها

ليعاقبها، ثم يقول لنفسه ماذا لو ضعف أمامها وسامحها دون أن يقتص منها؟ أخذ جسمه بالذبول من كثرة التخمينات التي تجتاحه وأيضا من الانهالك في البناء وعمل الأرض وأعمال المنزل من طبخ وتنظيف لعمي محمد...

ولأن كل منتظر أت، العرس بعد يومين، وكما جرت العادة أخذ عمي محمد وقريبان له كبشين وكمية من دقيق القمح والخضر اللازمة، أحد تلك الكباش يكون لأم العروس أو كما يسمونه ايزمر ن تيمنقت، هي لن تستأثره لنفسها لكنه يأتي على شرفها، بعد ان وصلت المستلزمات، شرعت تينهنان وقريباتها بقتل الكسكسي من الدقيق الذي أحضره أهل العريس أو محمد وقريباه الذين تكفلوا أن يكونوا أهل ايثري وعزوته.

في أول أيام العرس أو ما يعرف بيوم الحنة، سافر بعض من سكان ايغيل علي إلى بوفنزار ليحضروا العروس، الكل يتجهز لحفلة الليلة، جلست تافسوت منتصف النسوة، وقد تقدمت عجوز لتضع لها الحنة وسط ايسفرا أو تلك الأغاني التي يرددنها خصيصا لهكذا مناسبة، بعدها تناول الجميع العشاء، ونظرا لبعد القريتين عن بعضهما البعض، قضى أهل العريس ليلتهم هناك.

بمجرد قدوم الصباح انشغلت النسوة بتجهيز العروس بينما كانت مهمة الرجال تجهيز أميسان أو الهودج، جلبوا بغلة لذلك، هم عادة ما يستعملون بغلة ولميسوري الحال تستبدل بفرس، عله نوع من أنواع الغيرة فلا تتركب العروس حصانا أو حمارا مثلا لأنه ذكر ربما، يوضع فوقها طفل في نفس مقياس العروس تقريبا لتحديد حجم الهودج، يلف اللحاف حتى صدره ثم يربط بحيث يحافظ على هذا الشكل، بالمقابل يرفض الولد أن ينزل حتى يأخذ حقه من البيض وتلك عشرة كاملة.

اعتلت تافسوت البغلة وانطلق الموكب نحو ايثري، وقتها كانت الأفكار والخوف يعصفان بقلب هذه الصبية، ليس كخوف أي بنت من ليلة زفافها ورافقها لأهلها ولكن خائفة من مصيرها حتى يتمكن زوجها المستقبلي أن يغفر لها.

عرس الرجل على عكس المرأة يكون نهارا، اجتمع كل رجال القرية لتناول الغذاء على شرف العريس، اما النسوة فالمقربات فقط من يحضرن، وبانتهاء اليوم الثاني لا يكون العرس قد انتهى، ينتظر الجميع إلى اليوم الثالث لتأدية طقس آخر يعرف بيوم الحزام، تجهزت له تافسوت كما يليق بعروس، وسط تجمع كل من أقاربها الذين لم يعودوا إلى قريتها بعد وبعض جيران محمد

ليكونوا تعويضا لأهل ايثري اليتيم الطيب الذي أحبوه فعلا كابن لهم، تقدمت عجوز مشطت شعرها النحاسي وهن يغنين، ثم صفرت لها سبع صفائر رقيقة كما هو التقليد، وحينما أتمت ذلك اخذ الرجال يتقدمون واحدا تلو الآخر وفي مستهلهم عمي محمد، ليربط على خصرها حزاما ويقدم لها مبلغا رمزيا على ذلك، بالمقابل تقبل هي رأسه ثم تقدم له البيض والحلوى المجهزة مسبقا في غربال الفال، من تنسى أن تقبل رأسه منهم يقوم بضربها على كتفها كشكل من أشكال القصاص، وتنفض الجموع كل إلا حيث شاء، وتساق العروس إلى مخدعها...

دخل الغرفة ليجدها تجلس على فراشه قد رفعت ركبتيها
وأمسكتها بيديها خافضة رأسها بكامل زينتها، زيتها القبائلي
الأصفر وعليها فوطتها الملونة واللحاف المشكول بأفريم، قد
تجملت يداها وقداها بالحنة، تلمع الفضة على جبينها وجيدها مع
مقياسها وتلك الخواتم، لاح الخلال كالقطرة التي أفاضت كأس
الجمال، بقي يتأملها قليلا، أخذت خطواته بالاقتراب منها، وأخذت
دقات قلبها في التسارع لكنه انحرف إلى لكر، حمل لحافا وألقاه
في ركن زاوية بعيدة عنها، أطفأ الضوء وأطلق أول رصاصة في
الحرب.

لم يستطع النوم، بقيت صورتها ترتسم أمام عينه في الظلمة كشبح
يطارده، يتأرجح بين حبه وانتقامه، كيف لمن حلم بها أعواما
طويلة ان تكون زوجته وملكه فيهملها بهذا الشكل، ثم يصرخ قلبه
المجروح فيذكره أنها تلاعبت به كدمية ليس إلا، ولولا أن
ضميرها قد عذبها لما اعترفت له بشيء، أقنعه أن ما فعلته حتى
الآن ليس بدافع الحب أبدا، ربما هي لا تطيقه حتى.

في الزاوية الأخرى، لم تفق تافسوت إلا والدموع الحارة تنسكب على خديها، توقعت أنه سيكلمها بفضاضة، سيضربها، سيأخذ حقه منها بطريقة تؤذيها، لكن أن يتعامل كأنها غير موجودة تماما، فهذا يعني أنه لم يعد يكن لها أي مشاعر، لا كره ولا حب، أخذت التوقعات تأخذها بعيدا حتى اختطفها النوم.

ما إن أوشك الفجر على الحلول، أفاقت وشرعت في تحضير الكسرة ووضعت الحليب على النار، استيقظ على صوتها تغني، بقي في مكانه مستمتعا بصوتها قليلا ثم انتصب قائما، حمل برنسه متجها إلى الخارج، هي تراقبه وهو لم يلتفت إليها حتى ثم توقف فجأة فقد كان يتجنب أن تلتقي عيونه بها، ارتعد قلبها عله سيتنازل ويكلمها وهو ما حدث فعلا

-لا يسمح لك بالخروج من البيت، ولا استقبال أي أحد-

حمل كأسا من الحليب والكسرة وخرج تاركا إياها تكابد دمعها، واتجه إلى عمي محمد ليشاركه فطور الصباح ومن ثم إلى صلاة الفجر وأشغالهم اليومية المعتادة، عمي محمد الذي أخبره أنه عريس وعليه أن يكون هذا فطوره الأول المميز وأنه عليه ألا يتركها لوحدها، لم يجبه ايثري والتزم الصمت والإصرار.

لم تفطر تافسوت يومها، جلست دون أن تفعل شيئاً، حتى سمعت الطرق على الباب، عرفت انها والدتها، قامت بنتأقل وهي تفكر في العذر الذي ستقوله لها حتى لا تخالف أمر زوجها، ووقت خلف الباب والحزن قد احتلها.

-من هناك؟

-افتحي هذا أنا تينهنان

-صباح الخير أمي، لا يمكنني فتح الباب فقد أغلقه ايثري ونسي المفتاح بحوزته، كيف حالك؟

شعرت الأم من نبرة ابنتها أن الموضوع أكبر من قصة المفتاح السخيفة هذه، حاولت أن تستدرج فتاتها في الكلام دون أن ينتبه الجيران لها وتصبح سيرة لحديثهم اليوم، العروس الجديدة التي لم تفتح الباب لوالدتها، لكنها لم تجد جوابا غير ذلك، جمعت خبيبتها وعادت إلى بيت كوسيلة من حيث أتت، بعد ان أخبرتها ان على ايثري ان يرجعها اليوم أو غدا على أكثر تقدير إلى قريتها فلن تستطيع انتظار السبعة أيام هنا لوحدها وأنها حين ذلك ستمر لتوديعها.

رجعت عسلية العينين إلى جلستها التأملية، والأفكار ترقص بعقلها ذهابا وإيابا، هل يستحق عفوه أن تضحي بنفسها هكذا؟ لم تجد جوابا لكنها عرفت أنها علقت هنا في غرفته هذه وسجنها هي البعيدة عن قريتها بعشرات الكيلومترات، وها هي أمها ستغادرها وتتركها وحيدة، أصلا ما فائدتها إن كان لا يمكنها رؤيتها أو زيارتها...مر اليوم كاملا وهي كذلك، كاد الجنون ان يعصف بها قبل أن تنتبه لصوت الباب يفتح معلنا عودة ايثري، هي لم تأكل شيئا منذ البارحة، ولم تطبخ له أي شيء للعشاء، هل سيصرخ بها؟ لا بأس المهم أن يخرجنا من حرب الأعصاب هذه.

دخل بكل هدوء، وضع برنسه جانبا ثم جلس في ركن الغرفة وقد أسند ظهره إلى الجدار وارجع رأسه إلى الخلف مغمض العين، كأن لا أحد يشاركه فضاءه، اقتربت هي منه في محاولة لكسر جدار الصمت الذي أقامه دون مشاورتها.

-كيف حالك؟

**-لا دخل لك بحالي، فليكن بعلمك أنك منذ أمس في سجن
انفرادي، لن يراك أحد ولن تخرجي من هذا البيت حتى ينطفئ**

الغل الذي غرسته بي، لا تكلميني أبدا، إن شئت طبختي لنفسك
أو موتي جوعا لا يهمني، عودي إلى مكانك وابتعدي عني.

سجن انفرادي؟ ألهذا تزوجها، ليسجنها في غرفة بناها بنفسه، كم
كان أملها في طبيته كبيراً وكم جاءت خيبته أكبر.

-هل ذنبي يستحق كل هذا؟

-وتسألين أيضاً؟ حرق بيت آمن كادت أن تموت صاحبتة، قتل
طفل هكذا بدون ندم، ذبح قلب أمه التي لا تملكه غيره؟ سنوات
وأنا أعيش مع أمي انها تراني، ترعاني، تشعر بي، ثم ماذا؟ ثم
تقولين أنها خدعة، وكأن قلبي وإحساسي لعبة ليس إلا، لا
أعرف القانون ولا أعلم كم كان سيحكم عليك القاضي ولكنني
أستطيع حبسك نيابة عنهم، وإن كنت لا تزالين ترين أنك لم
تفعلي شيئا فهذه كارثة عظيمة، وستجدين هنا وقتاً كافياً لتفكري
بما مر بك، كنت كريماً معك وشرحت لك لما أنت معزولة هنا،
عليك أن تشكريني فلن تجدي قاضياً عادلاً مثلي، لم يشهر بك
ويفضح خبتك وشيطانك بل وتزوجك فوق كل ذلك.

ألجمتها الصدمة فهو لا يعاقبها فقط عما فعلته به وإنما عن كل ما
حدث، شعرت انها كانت غيبية عندها حكمت له واخبرته بكل

شيء، وماذا يعني أن يموت طفل أو تبكي أم أو حتى يحترق بيت، كلها أقدار ومن يدركه الموت فهو أجله، فلموت كأس سنشرب منه جميعا، إن لم نكن من نموت فسيموت لنا عزيز، الموت بطريقة ما يحيط بنا من كل جانب تكاد لا تمر سنة إلا وتسرق روحا تعلقنا بها، فلما عليه ان يلومني على الموت؟ هكذا تدفقت الأجوبة داخل رأسها لكنها لم تتفوه بها، تذكرت زيارة أمها وما اوصتها به، تنحنت كمن خمد صوته وهو يبحث عنه ليخرج ما في قلبه.

-لقد زارتي أمي صباحا

اتسعت عيانه بغضب واضح وهو يسألها إن كانت قد استقبلتها.

-اهدأ أيها القاضي فقد طردتها، لكنها تريد منك كما هي العادة أن ترجعها إلى قريتنا غدا لأنها لن تستطيع ان تنتظر الفترة الكاملة.

هز رأسه علامة القبول ثم دار بجسمه إلى الحائط وقد ترك لها ظهره وغيضا ونظراتها الشيطانية وقد أشعل الكره بها، ابتعدت عنه لتفكر هذه المرة فيما عليها هي ان تفعله الآن فهذا الشاب

يريد ان يكون عدوا لا حبيبا وزوجا، غير أن النوم سرقها من
غمرة التيهان.

النوم يأتي دائما في وقته المناسب، كأن هناك ملكا يراقبنا، فإن
احتد الصراع داخلنا أرخى جناحيه على عيوننا فنغط في عالم
آخر، ترتاح أعصابنا فيه، فكما للموت ملك يأخذنا إليه فلموت
الأصغر ملكه أيضا، ثم يرفع هذا الأخير جناحه عنا فنصحوا
لنواجه من جديد.

أفاق قبلها وخرج قاصدا بيت كوسيلة، انتظر حتى جمعت تينهنان
أغراضها وعادا أدراجهما إلى تافسوت لتودعا ببعضهما، كان
عناقا طويلا اشتكت فيه الفتاة حرقتها لأمها التي أخبرتها به أيضا
أنها تحس بها لكن ما باليد حيلة، عناقا صامتا ناطقا، دمعا حزينا
رراقا.

**-حينما تصلين أرسلني مع ايثري كتب أبي، فيبدو أن الفراغ
سيستنفذني.**

حمل أغراضها وغادرا سوية القرية بدون أن يتبادلا أي حرف
رغم أن تينهنان أرادت قول الكثير لكن هذا الصخر أمامها لم
يفتح فمه أبدا، خافت منه على ابنتها التي تراها رقيقة كالنسمة.

بعد مدة من الزمن وصلا، دخلت منهكة إلى بيتها جمعت بعض الكتب في رزمة وأعطتها لصهرها الذي رفض أن ينتظر أكثر وأصر أن يعود فوراً من حيث أتى.

-ابنتي أمانة لديك يا ولدي، لا أب لها ولا أخ ولا سند، أنت دنياها الآن فلا تفجع قلبي عليها.

-ابنتك يا خالتي مجنونة ملينة بالعقد، ابنتك ليست رقيقة أبدا بل شيطانة دجالة، ولولا أنني أحبها لكان مكانها مصحة الامراض العقلية أو السجن، سأكف أذاها عن غيرها وعن نفسها هذا ما أعدك به.

هذا ما قاله ايثري في قلبه، بعينه، لكن لم يخرج من شفثيه إلا نعم مع هز رأسه، حمل ما حضرته لابنتها وانطلق راجعا.

الحروب الباردة متعبة للأعصاب أكثر من تلك المباشرة،
تستنزفك من الداخل قبل الخارج، الأدهى انه عليك أن تظل قويا
صلبا في نظر غيرك، ألا يحس برجفة قلبك ونزف روحك،
تضطرك أن تخسر نفسك لكن ان تبق حديديا لخصمك.

ذلك ما كان يحدث بين ايثري وتافسوت، كان يتجاهلها بصعوبة
بالغة وكانت تتعرض له في كل مكان، توقظه صباحا لتناول
الطور الذي تحضره إليه وتجلس قبالتة دون أن تفتح فمها
بحرف، تلتزم بواجباتها اتجاهه وتحترم قوانينه بعدم التكلم معه،
ما إن يوشك على إتمام فطوره الصباحي يجدها تقف وهي تحمل
برنسه وتساعده على لبسه، ورغم انه لم يكن يعود للغذاء في
البيت إلى أنها كانت تجهزه وتنتظر عله يرجع.

يعود مساء ليجدها في كامل زينتها وأمامها العشاء كما تشتهي
النفس وتتمنى يجلس دون ان يبدي أي اهتمام أو رأي عابر، فقط
يأكل ثم يضطجع ووجهه يقابل الجدار، تجلس هي وقتها بالقرب
من مصدر الضوء وببدها كتاب، تقرأ بصوت يسمعه، وتمثل
الأدوار به، يكون رقيقا ناعما وهي تغوص في كلمات عاشقة،

قويا صلبا حينما تتحول إلى جندي أو قائد، رخيما إذا أصبحت
حكيمًا، أما أقرب الأصوات إليها كان صوت الساحرة كحفيف
الأفاعي، تختار جملها جيدا كأنها توصل رسائل إليه عبرها، كان
هو يتعذب في مكانه، يريد لها أن تخرس فإن استمرت هكذا يخاف
أن يخضع لها، يخبره قلبه انها طيبة رقيقة فعلا وقد تابت، فيذكره
عقله أنها كانت كذلك مع كل من آذتهم قبلا فيخافها، ثم يطمئن
أخيرا أنها مسجونة فلن تفعل شيئا غير ما تقوم به للتقرب منه.

مر شهر يتبعه آخر والوضع على حاله لا هو رضح إليها وأصبح
زوجا طبيعيا، ولا هي ملت من التودد إليه وكلها أمل أن الحال
سيتحسن، ولأنه حتى الصخور مع الوقت تفتتها الرياح، أخذ
الجدار بينهما بالتصدع شيئا فشيئا، بدأ بكلمات بسيطة منه، أصبح
تلقائيا يناديها باسمها، يصبح عليها، ويسألها عن حالها حين يعود،
وكلما اطل شعاع نور من ثقب في جداره اجتاحتها هي ليكون
نافذة فبابا.

فكر في قرارة نفسه أنها ربما قد تعقلت، أنها تخلصت من عقدها
بخصوص قتل البشر والتكهن لهم، فقرر منحها فرصة أخرى
وذلك بأن سمح لها بالخروج من البيت لجلب الماء من العين،
وبالمقابل سيراقب عن بعد تعاملها مع الأهالي، فكانت هي على

قدر العشم ونجحت في امتحان الشفاء من أوهامها، فأدرك أنها فعلا عندما قدمت إليه كانت نادمة راغبة في أن يسامحها.

عاد ليلتها وهو يشعر بالشوق إليها، كأنه نسي كل ما مضى ولم يعد بقلبه إلا حبها، نجحت في اختبارها بأن تعيده يعشقها من جديد، دخل البيت كعادته ووجدها بزيها وزينتها والكحل ينام في عينها، وأمامها صحن الكسكسي بالخضر تنتظره كما تفعل أي زوجة، قلل من اندفاعه وجلس بهدوء بقربها على غير الدأب.

-كيف حالك يا (سكت بشيء من الخجل).

-يا ماذا؟

-قبلا، هل هذه الشهور هنا علمتك شيئا؟

-بلى، عدم التفكير في الانتقام وخداع الناس مريح، العيش بطريقة طبيعية كأى زوجة لا هم لها الى رضا زوجها شغلني عن كل التفاهات، السعادة وراحة البال بيدنا لا تحتاج إلا لأشياء بسيطة، حتى أنني ندمت فعلا عن كل ما مضى الآن لا شيء يشغلني إلا أن أرى ابتسامتك، أشكرك لأنك عرفت كيف تعيدني إلى صوابي.

كانت تتكلم وهو يتأملها بإعجاب، أحس أنه نجح فيما كان يصبو إليه، شعر بصدقها وتعبه في حربه معها، قرر وقتها إعلان نهاية الحرب بطرد الرء منها وانتصار الحب

-الآن أستطيع أن أقول كيف حالك يا حبيبي.

آن الأوان أن يعرف هذا البيت قليلا من الراحة، من السعادة والكثير من الحب، آن الأوان كي يعيشا كأى زوجين دون حروب ولا بروتوكولات، شكلا كان واضحا أن تافسوت من فازت بها وجعلته يتنازل عن عقابها، لكن الفرحة في عيني ايثري تجعل الناظر إليه يظنه الغانم بفتح بلاد الأندلس.

هو الحب هكذا يجعلنا نسعد بفرح الحبيب سعادة أكبر من التي كانت ستكون لأنفسنا وإن كنا نحن الخاسرين.

أفاقت يومها والدوار يلعب برأسها، كان وجهها شاحبا، شارفت أن تسقط، أسرع إليها ليسندها فعجلت هي إلى الفناء وقد أفرغت ما في معدتها، ظن أنه ربما قد أكلت شيئا لم يناسبها فلم يجد بدا من سؤال عمي محمد عن عشبة نافعة لذلك بحكم سنه وخبرته في الحياة، ابتسم له ودله على عجوز خبيرة في أمور النساء، العجوز التي خرجت إلى افناء تزغرد وتطلب البشارة فهي حامل.

وقتها أحس ايثري أنه فعلا يملك عائلة حقيقيا، زوجته تحبه وتهتم له، طفل مقبل إليه بعد بضع شهور، كانا يجلسان طويلا وهما يفكران كيف يسميانه، يوبا إن كان ذكرا، تخبره أنها تريده مثله رجلا شهما يعتمد عليه، مثل أبيها فريدا من نوعه، سيجعلانه يحفظ المصحف كاملا، أما لو كانت فتاة فستكون تيزيري طبعا، عسلية العينين كأماها بشعرها العسلي.

يوما عن يوم كانت أحلامهما تكبر وفرحتهما تزيد، ينتظران أن تبلغ شهرها التاسع ويطل هذا الحلم الكامن في بطنها وتشرق به أيامهما، يهتم بأكلها وما تشتهيهِ خوفا ان تكون وحمة بعين الولد، حتى أعمال البيت فقد أعفاها منها، قرر أن يمشي على خطى طلب حماته يوم أوصلها بعد العرس، أن يكون لهذه الفتاة كل ما يمكن ان يكونه شخص لآخر، عازما انه ذلك القوي كالجدار، الجدار الذي ترتمي عليه فيسندها، والجدار الذي يحميها من كل ما يمكن أن تقذفها به الحياة، والذي تعتليه لترتفع وترتقي، اما هي فقد تدللت كما لم تفعل امرأة غيرها وضحكتها المغنجة لا تكاد تفارق ثغرها.

يوم يجر اخاه، واسبوع يليه آخر، وتمر الشهور سريعا، لكنها على المنتظر طويلة جدا، وبصبر نافذ بلغت الشهر الثامن، أفاق

وحضر قهوتهما، من ثم أيقظها ليستبشر بوجهها الصبوح، ودعها يومها وهو يشعر أن قلبه بقي عالقا هناك، وصل إلى الباب ثم عاد وسألها إن كانت بخير فأجابته بالإيجاب، لا يزال أمامها شهر كامل حتى يقلق هكذا، وإن حدث شيء ستنادي جارتهم، خرج وهو عازم أن يكمل عمله سريعا ويعود إليها فهو غير مطمئن.

بقي باله مشغولا بها، لم يذكر ما كان عليه فعله يومها، أو ما لا يجب عمله، كان مجنونا سارحا بعقله، زاد نبضه فجأة وانقبض قلبه، حاول تجاهله لكنه أطبق على أنفاسه، جرب أن يشغل نفسه بعمله لكن الوسواس بداخله لم يدع له مفرا، وقتها علم أن مكروها قد لحق بحبيبته، ترك كل ما كان بين يديه وسابق خطاه إليها.

دفع الباب بعنف وهو ينادي عليها دون أن ترد، تجاوز الفناء ليصرخ بعدها بصوت مدو تجمع على إثره كل الجيران في الفناء، كانت ملقاة على الأرض تسبح في بركة من الدم والسكين مغروسة في بطنها قد تركت امامها رسالة، أسرع إليها عله يعرف من فعل هذا بطفله وزوجته الحبيبة.

عزيزي وحبيبي ايثري

رغم كل شيء أنت حبيبي نعم

كان عليك أن تحبني من جديد لتشعر فعلا بطعم كأس الموت فأنا
الوحيدة التي ستتألم إن ماتت، لا أحد لك غيري يذيقك من تلك
الكأس، كما أنه القصاص على ما فعلته بعلي ذلك الطفل
البريء، ديننا يقول الحر بالحر، العقاب ليس السجن لبضع
شهور كما فعلت، لكن جاء الحمل ليخلط أوراقى، وقتها فكرت
أن انتظر ميلاد الطفل وأقتله، لأرى تعابيرك وأستلذ بذلك، لكنني
بدأت أحبه وعرفت أن الألم سيطولني فلم أجد بدا من أن أغادر
معه، فالموت كأس سنشرب منه جميعا وأنت لست معصوما.

السنة الماضية، وأنا في زيارة لثامورثيو، وأمام المقبرة لمحت
عجوزا أشعث أغير قد أحاطت به علامات الجنون، أخرست
الأيام لسانه إلا من جملة واحدة، "للموت كأس سيشرب منه
الجميع، فاغتنم يومك وأحبك قبل أن تحين شربتك".

عندما نقرر فعل الخير فلا بد أن يكون كاملا، إن كفلت يتيما فكن له والدا راعيا، وإن أحببت فيقلب أبيض لا يشوبه حسد...

ليس كل كاهن ساحر هدفه أن يساعدك بكشف مستقبلك، لكل منهم غايته ومراده، أما الأكد أن كلهم دجالون لا يفقهون بالتنبؤ شيئا، فقط يحسنون الخداع جيدا، صدق من قال كذب المنجمون ولو صدقوا...

للموت فعلا كأس سنشرب منه عاجلا ام آجلا، لكن علينا أن نعيش يومنا كما يليق به، أن نستمتع بكل ثوانيه قبل أن تخطفنا يد المنية، وبين كل ذلك الا ننسى أنه علينا التزود ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، هي حياة واحدة فاغتنمها دينا ودنيا.

إعطاء فرصة ثانية لمن خانك مرة كإعطاء مسدس لمجنون فشل في قتلك في المرة الأولى، سامح واغفر ليرتاح قلبك من الغل لكن إياك أن تكون ساذجا فمن يطعن مرة قد يطعن مرتين.

أما أخيرا أجب الجميع كأن لا شر في البشر، واعتمد على نفسك كأن لا خير بعدك...

أحبكم...